غراسيليانو راموس

حيوانات جائعة

ترجمة
صالح علماني

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

الأهالي

رواية

اهـــداء

حيوات جافة

* حمورات جافة ـ رواية
* فراسيليانو راموس
نرجمة : صالح علماني
* الغلاف للفنان : غسان دردير

* الطبعة الأولى ٥/١٩٩١
* جميع الحقوق محفوظة للناشر
* الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق ـ هاتف ٤٢٠٢٩٩ ـ ص.ب: ٩٥٠٣ ـ تلكس: ٤١٢٤١٦
* التوزيع :
قسم التوزيع ـ الأهالي للنشر والتوزيع
دمشق ـ هاتف ٢١٣٩٦٢ ـ ص.ب: ٩٢٢٣ ـ تلكس: ٤١٢٤١٦

عراسيليانو راموس

حيوات جافة

رواية

ترجمة
صالح علماني

عنوان الرواية الأصلي:

GRACILIANO RAMOS

VIDAS SECAS

Editorial Casa de las Americas

الفصل الأول

رحيل

في السهل الضارب للحمرة، كانت شجيرات « الجوازيرو »[1] تنبسط في بقعتين خضراوين. وكانت جماعة التعساء مرهقة وجائعة بعد مسير يوم كامل، كان سيرهم بطيئا عادة، لكنهم وبعد أن نالوا قسطا وافيا من الراحة فوق رمال النهر الجاف، أمكن لرحلتهم أن تتقدم أكثر من ثلاثة فراسخ. انهم يبحثون عن ظل منذ ساعات، وأوراق الجوازيرو تبدو بعيدة مابين الاغصان العارية لشجيرات الكاتنجا[2] القليلة.

لقد جرّوا أنفسهم ببطء حتى هناك: دونيا فيكتوريا التي تحمل الابن الأصغر معلقاً على خاصرتها وصندوق الخيزران فوق رأسها. وفابيانو المتجهم الذي يترنح في مشيته وهو يعلق صرة بعصاه، بينما القرعة التي تستخدم كزمزميه تتدلى من حزام في وسطه، والبندقية القديمة على كتفه. والابن الأكبر والكلبة يمضيان في المؤخرة.

كانت شجيرات الجوازيرو تدنو. تتراجع.. لقد اختفت الآن. افترش الابن الأكبر الأرض وأخذ يبكي.

---

(١) الجوازيرو: شجيرة من فصيلة السياجيات.

(٢) كاتنجا: تشكيلة غابية تنمو بكثرة في مناطق السيرتاو الصحراوية في البرازيل، وهي شجيرات ربعة وملتوية، شوكية وحرشفية وصبارية.

[illegible] الأب

[illegible] الشيطان!

[illegible] رداً من الصبي، ضربه بغمد السكين. دافع الصغير عن نفسه [illegible] الكان، ليرقد ويغمض عينيه. ووجه اليه فابيانو عدة ضربات [illegible] منه أن ينهض. وبما أن ذلك لم يحدث فقد تلفت في جميع الاتجاهات [illegible] وهتف بصوت خافت.

[illegible] الكاتنجا تمتد باحمرارها الملطخ ببقع بيضاء من العظام. فيما طيران [illegible] الأسود يرسم دوائر عالية فوق الحيوانات المتحضرة.

هيا أيها اللعين!

لم يتحرك الصبي، وأحس فابيانو برغبة في قتله. كان له قلب قاس، وهو [illegible] الهناء مسؤولية نكبته على أحد. فالجفاف يبدو له أمراً ضرورياً، أما عناد الصبي، فيثير حفيظته. لم يكن هذا العائق الصغير هو المذنب في الحقيقة، لكنه يعرقل المسيرة، وراعي المواشي يريد الوصول دون أن يعرف الى أين.

لقد خلفوا وراءهم الدروب المليئة بالأشواك والحجارة البيضاء. وهم يسيرون منذ ساعات بمحاذاة النهر، يطأون الأرض الجافة المشققة التي تشوي الأقدام.

ومرت في روح السيرتاني[٣] المكروبة فكرة ترك ابنه في هذا الخلاء. ففكر بالنسور وبالعظام، ثم هرش لحيته الشقراء القذرة وتفحص ماحوله بحركة حائرة. مطت دونيا فيكتوريا شفتها مشيرة بابهام الى أحد الاتجاهات، واكدت ببضعة أصوات صادرة من حلقها بأنهم أصبحوا قريبين. أغمد فابيانو السكين في قرابها وثبتها بحزامه. وفحص وهو جوالس القرفصاء نبض الطفل الراقد منكمشاً على نفسه وركبتاه ملتصقتين بمعدته. كان بارداً كميت. عندئذ انزاح الغضب عن فابيانو وأحس بالأسى. من المستحيل عليه ترك الملاك الصغير لضواري البرية.

أعطى البندقية لدونيا فيكتوريا، وألقى بالطفل على رقبته. أمسك

(٣) السيرتاني: ساكن السرتاو، وهي منطقة قاحلة في شمال شرقي البرازيل.

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

بالطيور الصغيرتين اللتين اهتمتا بتراثها فوق عنقه. وأبدت دونيا فيكتوريا ارتياحاً عن هذا الحل، ثم أطلقت الصيحة الخلقية من جديد، مشيرة الى أشجار الموز أو اللامرئية.

واستمرت الرحلة، ببطء أكبر، وبجرجرة أكثر، وبصمت مطبق.

وكثيراً لغياب رفيقها، احتلت الكلبة بالينا مقدمة المجموعة. كانت أضلاعها بارزة، وهي تركض متشممة ولسانها خارج فمها. وبين الحين الآخر كانت تتوقف بانتظار الجماعة التي أخذت تتأخر.

كانوا يوقدون عند يوم أمس، ستة كائنات شبه حية، بما في ذلك البيغاء. يا للمسكينة، لقد حطمت تحيتها في رمال النهر، حيث استراحوا الى جانب حفرة فيها بعض الماء. كان الجوع يعتصر الريتيريون[4] بشدة، ولم يكن هناك من أثر لأي طعام. لقد كان عشاء بالينا هو قرنا الوعل ورأس وعظام صديقتها، ولم تكن لتتذكر شيئاً من هذا القبيل حينئذ. أما الآن، وهي متوقفة، فانها توجه حدقتي عينيها البراقتين نحو المتاع العائلي وتستغرب عدم وجود القفص الصغير فوق صندوق القش، حيث كان الطائر يحافظ على توازنه بجهد جهيد وفايانو أيضاً يستغرب أحياناً هذا النقص، لكنه مايلبث أن يتذكر الأمر. فوراً صاروا كلهم يبحث كمجنون عن بعض الجذور، إذ لم يكن قد بقي بحوزتهم شيء من الصديقة، ولم يكن يُسمع ثغاء أي بهيمة شاردة في الكانتجا.

كانت دونيا فيكتوريا تجلس على الأرض، وبدأت الثقاطعتان تمسكان بعظام ركبتيها البارزة، وهي تفكر بأحداث قديمة لاتربطها ببعضها رابطة: حفلات زواج، وشراء عجول كاملة، وصلوات تساعية، وكان كل هذا مختلطاً ببعضه عندما أيقظتها صرخة خشنة، فعادت لترى الواقع والبيغاء التي كانت تمشي حانقة، وبشكل مضحك، على قائمتيها اللتين تشبهان رفشين صغيرين، وفجأة قررت الاستفادة منها كطعام وبررت ذلك لنفسها بأن البيغاء يكفيها ولايفيدها في

(٤) الريتيريون (المنحدرون): من بلاحقهم الجفاف فيهربون نحو الساحل، أي من يقومون بالانسحاب، حسب التعبير السرتاني.

منهـا . ثم ان وضعهـا كبكـاء لايمكن له أن يتبـدل . فالعـائلة كلهـا كانت قليلة الكـلام عمـومـاً . وبعـد هذه الكـارثـة أصبحوا جميعهم يعيشون صامتين ، ونادراً ماكانوا يفلتون كلمة مقتضبة . وكانت الببغاء تحاكي النداءات لمواش لاوجود لها أو ننبح مقلدة الكلبة .

عادت بقـع الجـوازيـرو للظهـور ، وعجـل فابيـانو من خطواته ناسياً الجوع والارهـاق والجـراح . فنعله القنبي كان مهترئاً عند كعبيه ، وأربطته الغليظة سببت له شقوقاً مؤلمة مابين الأصابع . وكان عقبا قدميه القاسيان كحافرين يتشققان وينزفان .

عند أحد المنعطفات لمح سياجاً ، فشع فيه الأمل بالعثور على طعام . أحس برغبة في الغناء . لكن صوته خرج فظاً مرعباً . فصمت كي لايستنفذ قواه .

ابتعدوا عن ضفة النهر ، وساروا بمحاذاة السياج ، ثم صعدوا منحدراً حتى وصلوا الى شجيرات الجوازيرو . لقد مضت عليهم فترة طويله دون رؤية ظل .

وسّـدت دونيـا فيكتـوريـا ابنيها الأرض وكأنهما حزمتان من المتاع ، وغطتهما ببعض الخـرق . وبعـد ان اجتـاز الابن الأكـبر حالـة الغيبـوبـة التي كانت سبب انهيـاره ، بقي منكمشـاً على نفسه فوق الأوراق الجافة ، ورأسه مستند الى جذر ، وكـان يغفـو لحظـة ليستيقـظ في الحـال . وعنـدما يفتح عينيه ، كان يلمح شبح تلة قريبة ، وبعض الأشجار ، وشيئاً يركض . انها الكلبة بالينا تقترب لتتكور الى جانبه .

لقد كانوا في فناء مزرعة لاحياة فيها ، حظائرها مخربة وخاوية ، وبيت راعي المواشي مقفل . . . كل شيء يعلن أنه مهجور . فعلاً ، لابد أن المواشي قد نفقت وأن ساكني البيت اضطروا الى الهرب .

عبثـاً حاول فابيـانـو أن يسمـع رنـين جلاجـل . اقـترب من البيت ، طرق البـاب ، وحـاول فتحـه . وعنـدما لاقى صعوبة نفذ من سور مليء بنباتات جافة ، وقـام بجـولـة في الخرابة حتى وصل الى طرفها ، حيث توجد حظيرة خاوية ، وأجمة

من الكاتنجايرا الذابلة، وسياج من عوارض خشبية وامتداد سور الفناء. تسلق الجدار وتأمل الكاتنجا حيث كانت تظهر العظام وسواد النسور. نزل، ودفع باب المطبخ. ثم عاد قانطاً. توقف هنيهة في الرواق مقلباً فكرة الاقامة مع عائلته في ذلك المكان. لكنه حين وصل الى شجيرات الجوازيرو وجد الطفلين نائمين ولم يشأ ايقاظهما. مضى لجمع الحطب، والتقط من زريبة الماعز حزمة من الخشب كان النمل قد قرض نصفها، وانتزع بعض فروع الماكامبيرا[٥] ووضع كل ذلك ليوقد به ناراً.

في هذه اللحظة رفعت بالينا أذنيها، وزمت انفها حين شمت رائحة أرانب برية. تشممت قليلاً ثم انطلقت تعدو بعد أن حددت موقع الأرانب في الربوة المجاورة.

تابعها فابيانو بنظره وأحس بالذهول: هناك ظل كبير ينسحب فوق السهب. لمس ذراع زوجته وأشار الى السماء، وحدقا كلاهما لبعض الوقت محتملين وهج الشمس الساطعة. مسحا دموعهما واقتربا من طفليهما مطأطئين وهما يتنهدان. بقيا ملتصقين ببعضهما خوفاً من أن تكون الغيمة قد تفتتت، مهزومة أمام الزرقة الرهيبة. هذه الزرقة التي تجعلهما يفقدان صوابهما وتبعث بهما على الجنون.

هاهي الشمس تظهر وتختفي دون أن تفقد شيئاً من وهجها. ثم يأتي الليل ليخيم بقوة على الأرض. قبعة الليل السوداء تهوي على الكاتنجا كلها ناشرة الظلام، وتكاد الظلمة تنكسر أمام إحمرار الغروب القرمزي.

وبلا معنى يتشبث الهاربون، الهائمون في الصحراء اللاهبة، ببعضهم ليجمعوا شمل بلواهم وخوفهم. فينبض قلب فابيانو بعنف الى جانب قلب دونيا فيكتوريا، ويجمع عناق منهك الأسمال التي تغطيهما الى بعضها لكنهما يقاومان

---

(٥) ماكابيرا: نبات من الصبر ينمو بكثرة في شمال شرقي البرازيل، تستخدم ساقه كغذاء للانسان والحيوان في فترات الجفاف. أما أوراقه المكتنزة ذات الاشواك ففيها بصيلات تستخرج منها مادة تستخدم بدل الدقيق.

الضعف ويتباعدان بحجل ليواجها ثانية، بلا حماس، الضوء القاسي، وقد راودتهما الظنون بأنهما سيفقدان الأمل الذي انبعث فيهما.

استسلما للنوم الى أن أيقظتهما بالينا وهي تحمل أرنباً بريا بين أنيابها. فنهضوا جميعهم متصايحين. دعك الابن الأكبر رموشه طارداً النعاس عنهما، فيما كانت دونيا فيكتوريا تقبل فم بالينا، وبما أن فم الكلبة كان ملطخاً بالدم، فانها راحت تلحسه مستفيدة بذلك من القبلة.

صيد بائس، لكنه كاف لابعاد الموت عن المجموعة. وفابيانو يريد الحياة. تطلع الى السماء بعينين ثابتتين. كانت الغيمة قد اتسعت، انها تغطي الربوة كلها الآن. ووطىء فابيانو الأرض بشدة، ناسياً الشقوق التي هتكت أصابع قدميه وكعبيهما.

أخذت دونيا فيكتوريا تبحث عن شيء ما في الصندوق، ومضى الأطفال لكسر غصن قاس يمكن استخدامه كسيخ شواء. أما بالينا فكانت ترهف سمعها، بينما مؤخرتها مستريحة على الأرض وقائمتاها الأماميتان منتصبتان، تترصد بحذر نصيبها من الصيد. ربما تكون عظام الأرنب، وقد تحصل على الجلد أيضاً.

حمل فابيانو القرعة الجوفاء ونزل المنحدر متوجهاً صوب النهر الجاف، وهناك في مورد المواشي وجد قليلا من الطين. حفر بأظافره وانتظر ركود الماء، ثم انبطح وراح يشرب بجنون. وبعد ان ارتوى، انقلب على ظهره وأخذ يتأمل النجوم التي بدأت تولد. واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع.. ثمة نجوم كثيرة في السماء. احتجب أفق الغروب وراء الغيوم، وملأت قلب فابيانو سعادة مجنونة.

فكر بالعائلة وأحس بالجوع. كانت حركته وهو يسير، اذا ما أمعن المرء النظر، لاتختلف كثيرا عن حركة العجلة الكبرى في طاحونة دون توماس. أما الآن، وهو مستلق، فانه يضغط على بطنه ويجعل أسنانه تصطك. الى أية نهاية وصلت طاحونة دون توماس؟

لقد اضطر دون توماس كذلك الى الهرب من الجفاف ومن الطاحونة

المتوقفة. وهو، فابيانو، كان كعجلة الطاحونة. لايدري لماذا، لكنه كان كذلك.

واحدة، اثنتان، ثلاث.. هنالك نجوم كثيرة في السماء. والقمر محاط بهالة لها لون الحليب. سيهطل المطر. حسن. ستنبعث الكاتنجا من جديد، والماشية التي مازالت على قيد الحياة سترجع الى الحظائر، وهو، فابيانو، سيكون راعي الماشية في هذه العزلة. والأولاد الأصحاء والمعاقون سيلعبون في زريبة الماعز، وسترتدي دونيا فيكتوريا الملابس الزاهية المزينة بالزهور. وستملأ الأبقار الفناء. وستصبح الكاتنجا كلها خضراء.

تذكر ابنيه وزوجته والكلبة، الذين كانوا هناك في الأعلى يعانون الظمأ في ظل شجيرات الجوازيرو. تذكر الأرنب البري الميت، فملأ القرعة بالماء ونهض ليسير متمهلاً كي لايهدر الماء المالح. صعد المنحدر. كان الهواء الساخن يحرك نباتات الشيكيتشيكي[٦] والماندراكارو[٧]. خفقة أمل جديدة. تخيل زلزالاً في الكاتنجا.. انبعاث أغصان وأوراق جافة وعودتها للحياة.

وصل. وعندما وضع القرعة على الأرض، ثبتها ببعض الأحجار وروى ظمأ اسرته. بحث وهو جالس القرفصاء عن حجر القدح في صرته وأشعل النار بجذور الماكامبيرا. كانت وجنتاه الشاحبتان تنتفخان وهويؤجج النار. ارتعشت ومضة لهيب، وارتفعت ملونة وجهه الملوح ولحيته الشقراء وعينيه الزرقاوين. وبعد لحظات كان الأرنب يفرقع وهو يتقلب على سيخ الشواء

جميعهم كانوا سعداء. دونيا فيكتوريا سترتدي فستاناً فضفاضاً مزيناً بالزهور. ووجه دونيا فيكتوريا سيستعيد شبابه، وردفا دونيا فيكتوريا الضامران سيمتلآن، وملابس دونيا فيكتوريا الزاهية ستثير الحسد في نفوس الفلاحات الأخريات.

كان القمر وظله الحليبي يتسعان فيما النجوم تذوي في البياض الذي راح يكتنف الليل. واحدة، اثنتان، ثلاث.. نجوم قليلة تبدو في السماء الآن. وهناك

(٦) الشيكيتشيكي: نبتة شوكية من نباتات السيرتاو.

(٧) الماندراكارو: نوع من نبات الصبر.

قريباً من الغيمة كانت الرابية مكسوة بالظلام.

العـزبـة ستنبعث، وسيكـون هو، فابيـانـو، راعي المواشي.. أو سيكون بالأحرى سيد هذا العالم.

كان المتـاع البـائس مبعثـراً على الأرض: المكنسـة، والمخلاة، وقرعة الماء وصندوق القش الملون. وكانت النار تفرقع. أما الأرنب فكان يتلوى على السيخ.

انبعاث. ألوان العافية سترجع الى وجه دونيا فيكتوريا الحزين. وسيتلوث الطفـلان في زريبـة المـاعـز. وسـتر ن جلاجل الماشية في كل هذه الأرجاء وستعود الكاتنجا خضراء.

كانت بالينـا تهز ذيلهـا وهي تتأمـل الجمر. وبما انها لاتستطيع التفكير بهذه الأمور، فانها تنتظر بفارغ الصبر اللحظة التي ستمضغ فيها العظام، وبعدها ستنام.

الفصل الثاني

فابيانو

عالج فابيانو الجرح المتعفن للعجل الضائع من خلال آثاره. كان يحمل في كيسه زجاجة من معقم كريولينا، ولو انه وجد الحيوان لعالجه كالعادة. لكنه لم يجده، فانحنى وهو يبحث عن آثار حوافره على الرمل، ثم صالب عودين على الأرض وصلى. اذا لم يكن الحيوان قد مات فسيرجع الى الزريبة، لأن الدعاء كان حاراً.

عندما انتهى فابيانو من اداء واجبه، نهض وهو مرتاح الضمير وعاد الى بيته. وصل الى ضفة النهر. كان الرمل الرخو يسبب له الاجهاد، أما هناك، في الوحل الجاف، فكان الصندل القنبي يصدر صوتاً: تشاب ـ تشاب. كما كانت الجلاجل المعلقة في كتفه ترن بصوت أصم. لقد كان رأسه مائلاً، وظهره منحنياً، وكان يحرك ذراعيه في كلا الاتجاهين. انها حركات لاطائل منها، لكن راعي المواشي، ووالد راعي المواشي، وجده وأسلافه الآخرين القدماء اعتادوا على اجتياز الدروب وهم يزيحون النباتات بأيديهم. وها قد بدأ ابناه يأتيان بهذه الحركات المتوارثة.

تشاب ـ تشاب. ثلاثة ازواج من نعال القنب كانت تقرع الأرض الطينية المشققة، البيضاء الجافة في السطح، والسوداء الرخوة في أعماقها. وكان طين ضفة

النهر يهتز مع وقع النعال.

كانت الكلبة بالينا تعدو أمامهم، وقد قطبت وجهها، وهي تبحث عن العجل في الكاتنجا.

فابيانو يمضي راضياً. أجل ياسيدي، انه مطمئن. لقد وصل الى هنا حين كانت عائلته على وشك الموت جوعا، وكانوا يقتاتون بالجذور. وعند وصولهم انهاروا تحت شجيرة الجوازيرو، وبعدها استولوا على البيت المهجور. وسكن هو وزوجته وولداه الحجرة المظلمة ، حيث كانوا يبدون كفئران، وأخذت ذكرى المعاناة الماضية تنزاح.

وطأ الأرض المشققة بثبات. أمسك بالسكين، وراح ينظف أظافره القذرة. أخرج قطعة تبغ من كيسه، ثم لفها وأشعل سيجارة من أوراق الذرة يدخن بشعور من الرضى.

هتف بصوت عال:

ـ فابيانو انك لرجل.

توقف. لاحظ أن الصغيرين قريبان منه ولابد ان كلامه وحيداً سيفاجئهما. ثم انه ليس رجلاً اذا ما أمعن في الأمر. ماهو إلا كابرا[1] مشغول بحماية أملاك الآخرين. صحيح أنه أحمر، محروق، وعيناه زرقاوان، ولحيته وشعره اشقران، إلا أنه يعيش في أرض الآخرين، ويعنى بمواشي الاخرين، لهذا فان البيض ينظرون اليه ويعاملونه على انه كابرا، عامل ريفي مولد.

تلفت فيما حوله، خشية ان يكون أحد سوى الصغيرين قد سمع عبارته المتهورة. ثم صححها مدمدماً:

ـ أنت حيوان يافابيانو.

وهذا بالنسبة له مدعاة للفخر. أجل ياسيدي، حيوان. قادر على قهر الصعاب. لقد وصل الى هنا وهو على تلك الحالة المزرية، وهاهو الآن قوي

(١) كابرا: تسمية تتردد بكثرة في الشمال البرازيلي للاشارة الى المولدين. والمعنى المجازي للكلمة هو الشخص الجسور، الباسل، القادر على تحمل مشاق العمل.

وسمين تقريباً، يدخن سيجارته التي من أوراق الذرة.

ـ حيوان يافابيانو.

هكذا أحس. كان قد استولى على البيت لانه لايملك مكاناً يموت فيه، وانقضت بضعة أيام وهم يمضغون جذور الامبو وبذور الماكونا[٢]. وجاءت العاصفة أيضاً، ومعها جاء الخولي ليطرده. فتظاهر فابيانو بعدم الفهم وعرض عليه خدماته مدمدماً، وحاكاً منكبيه، ومبدياً ابتسامة كئيبة. المسألة كلها انه كان محتاجاً للبقاء في البيت. وقد وافق مالك الأرض، وسلمه الحدائد ليسم بها المواشي.

فابيانو الآن هو راعي المواشي ولايمكن لأحد أن ينتزعه من هناك. لقد جاء كحيوان، وتشبث بهذه الأرض كحيوان، لكنه مالبث ان أنبت جذوراً، وهاهو مزروع هنا. نظر الى نباتات الصبار والشيكيتشيكي. انه متمسك بالأرض، هو وفكتوريا والصبيان والكلبة بالينا.

تشاب ـ تشاب. النعال القنبية تضرب الأرض المصدعة. جسد راعي المواشي يترنح، وساقاه ترسمان قوسين وذراعاه تتحركان دونما كابح. كان يبدو وكأنه قرد.

أحس بالأسى. أيعتبر نفسه مزروعاً وهو يعيش في أرض يملكها غيره! انه يخدع نفسه. فقدره ان يجوب الدنيا، وأن يهيم في كل الانحاء كيهودي تائه. متشرد يدفعه الجفاف الى الرحيل. انه عابر هنا، غريب. أجل ياسيدي، انه نزيل قد يتأخر في اقامته بعض الوقت ويعتاد على البيت والاسطبل والجوازيرو الذي استخدموه كسقف ليقضوا تحته ليلتهم الأولى كلها.

فرقع أصابعه. وأتت الكلبة بالينا قافزة لتلعق يديه الكبيرتين المغطاتين بالشعر. ورقّ فابيانو وهو يتلقى المداعبة.

ـ أنت حيوان يابالينا.

انه يعيش بعيداً عن البشر، ولايشعر بالطمأنينة إلا مع الحيوانات. قدماه

(٢) ماكونا: شجرة تستخدم بذورها في تتبيل الطعام وفي بعض الاستطبابات.

القاسيتان تهرسان الأشواك ولاتشعران بحرارة الأرض المحرقة. لايمكن الفصل بينه وبين الحصان حين يمتطيه. وهو يتكلم لغة مغناة، حلقية ومتقطعة، يفهمها رفيقه. لم يكن يشعر بالراحة وهو سائر على قدميه. انه ينحني الى هذا الجانب أو ذاك أفكحاً وقبيحاً. ويستخدم أحياناً في علاقاته مع الناس اللغة ذاتها التي يخاطب بها البهائم: الصراخ، ومحاكاة أصوات الحيوانات. والحقيقة انه قليلاً مايتكلم. وهو يكن احتراماً شديداً لكلمات أهل المدينة الطويلة والصعبة، ويحاول ببلادة اعادة نطق بعضها، لكنه كان يعرف أنها كلمات لاجدوى منها، كما انها قد تكون خطرة كذلك.

اقترب منه أحد الولدين وسأله شيئاً. توقف فابيانو، وقطب حاجبيه منتظراً اعادة طرح السؤال وهو فاغر فمه. وبما انه لم يفهم مايريده ابنه، فقد زجره. كان الصغير شديد الفضول، وكان يبدو عليه انه مهموم جداً. اذا مااستمر الصغير ان على هذا الحال، يتدخلان فيما لايخصهما، فأين سينتهيان؟ زجره ساخطاً.

ـ تخطر لهؤلاء الأولاد كل فكرة...

لم ينه فكرته، لكن هذا بدا له سيئاً. حاول ان يتذكر طفولته ورأى نفسه ضئيلاً ونحيلاً، بقميصه المهترىء الممزق، وهو يرافق أباه في أعمال الحقل ويستجوبه بلا طائل. نادى ولديه وحاول ان يشغل اهتمامهما بأمور مباشرة. صفق بيديه:

ـ صدى! صدى!

خرجت الكلبة بالينا راكضة من بين الشجيرات لتقتفي أثر العجل الضائع. وعادت بعد دقائق خائبة، كئيبة، متدلية الذيل. واساها فابيانو معانقاً اياها. كان يريد تعليم الأولاد فقط. فمن المستحسن ان يتعلموا هذه الأمور.

وسع خطواته، وخلف وراءه الصلصال الجاف عند ضفة النهر ليصل الى المنحدر المؤدي الى فناء البيت. كان يمشي قلقاً، وعلى عينيه الزرقاوين غمامة. ان ثقباً قد تبدى في حياته. ووجد نفسه بحاجة للحديث مع زوجته، بحاجة لتخفيف هذا القلق، وعليه ان يملأ المعالف بالمانداكارو لتقديمها للماشية.

لحسن الحظ ان العجل قد عولج بالصلاة. واذا مامات فلن يكون الذنب ذنبه.

ـ صدى! صدى!

قفزت بالينا ثانية مابين نباتات الماكامبيرا، ولكن كل ذلك كان سدى. لعب الصغيران بحماس. وأحس فابيانو بالبهجة. نعم، هذا جيد. لم تتمكن بالينا من العثور على العجل في دغل الماكامبيرا، لكنه كان يرى انه من الضروري ان يعتاد الطفلان على هذا التمرين السهل: التصفيق، وسط الصراخ، وملاحقة حركة الحيوان. كانت الكلبة قد عادت ثانية وهي تلهث ولسانها خارج فمها. تقدم فابيانو المجموعة، سعيداً بالدرس، مفكراً بمهرة سيمتطيها، مهرة لم تعرف سرجاً ولم تُحذ بعد. وكانت ضجة رهيبة تعصف بالكاتنجا.

سيتفاهم الآن مع دونيا فيكتوريا بشأن تربية الصغيرين. الحقيقة انها غير مذنبة في هذا. فهي مشغولة بأعمال البيت: تسقي النباتات وتجلي القدور، وتنزل الى المنهل حاملة الجرة لتصعد بها ممتلئة، وكانت تترك ولديها طليقين في الأرض الموحلة، ملطخين بالطين كالخنازير. وكانا لايطاقان لكثرة مايسألان. ان فابيانو يشعر بأنه على مايرام بجهله. هل له الحق بالمعرفة؟ نعم أم لا؟ لاياسيدي.

ـ أجل، هكذا.

فلو انه تعلم شيئاً لاحتاج الى تعلم المزيد، وعندها لن يرتوي أبداً.

تذكر دون توماس صاحب الطاحونة. وتذكر كذلك رجال الصحراء، أسوأهم حظاً كان دون توماس صاحب الطاحونة. لماذا؟ لأنه كان يقرأ كثيراً فقط. وكان هو، فابيانو، قد قال له مرات كثيرة: « يبدو أنك لاتدرك الأمور يادون توماس. لماذا كل هذه الأوراق؟ حين تأتي الكارثة سيخرب بيتك مثلنا يادون توماس ». وجاء الجفاف، وفقد العجوز المسكين، الطيب والقارىء النهم، كل شيء، وهيام على وجهه في تلك الانحاء دون ان يستطيع رفع رأسه. ربما يكون قد مات، فشخص مثله لايستطيع احتمال صيف قاس كهذا.

الحقيقة ان هذه المعرفة تبعث على الاحترام. فعندما كان دون توماس صاحب الطاحونة يمر شاحباً، ووقوراً، محدودب الظهر قليلاً، فوق جواد أعمى

يبدو وكأنه يتروى قبل أن يحرك أية قائمة من قوائمه، كان فابيانو وآخرون من أمثاله يكتشفون أنفسهم. وكان دون توماس يتكلم وهو يلامس حافة قبعة الريش ويدور من جانب الى آخر مباعداً كثيراً مابين ساقيه اللتين تنتعلان جزمة سوداء بها رقع ملونة.

كان فابيانو يرغب في ساعات الجنون بتقليده: يتقول بكلمات صعبة، حاذفاً بعض الحروف من كل مايقول، محاولاً بذلك اقناع نفسه انه قادر على الكلام بشكل أفضل. حماقات. فقد كان واضحاً تماماً ان شخصاً مثله لم يولد ليتكلم بشكل جيد.

دون توماس صاحب الطاحونة كان يتكلم بشكل جيد، كان يتلف عينيه وهو منكب على الجرائد والكتب، لكنه لم يكن يعرف كيف يوجه الأوامر. كان يطلب. أمر غريب ان يصل رجل الى ذروة الذوق. كان الجميع يأخذون عليه هذه الأساليب، لكنهم جميعاً كانوا يطيعونه. آه! ومن يستطيع القول انه لم يكن يطيعه؟

البيض الآخرون كانوا مختلفين عنه. فالمعلم الحالي مثلاً يصرخ بسبب وبلا سبب. يكاد لايجيء الى المزرعة أبداً، وعندما يأتي اليها فلكي يقول انه يجد كل شيء على أسوأ حال. المواشي تتكاثر، والعمل يسير على أحسن وجه، لكن المالك لايكل من تحدى راعي الأبقار. هذا طبيعي. فهو يوبخ لأن بمقدوره عمل ذلك. وفابيانو يستمع الى التوبيخ وهو يضع قبعته الجلدية تحت ابطه، يعتذر ويعد باصلاح الأمور. ويقسم في ذهنه انه لن يصلح شيئاً، لأن كل شيء على مايرام والسيد يريد اظهار سلطته فقط والصراخ بانه هو المالك. ومن يشك في هذا؟

فابيانو هو شيء من أشياء المزرعة، متاع، يمكن أن يُطرد من العمل في أي وقت ودون سابق انذار. عندما تعاقد للعمل استلم الحصان كأداة للعمل، وسراويل ومعاطف جبلية وأحذية من جلد خام، لكنه اذا غادر المزرعة فسيترك كل هذه الأشياء لراعي الأبقار الذي سيخلفه.

كانت دونيا فيكتوريا ترغب في اقتناء سرير كسرير دون توماس صاحب

الطاحونة. ترهات. لم يقل لها شيئاً، كي لايعارضها، لكنه كان يعلم ان هذا حماقة بالغة. وهل بامكان الاجراء ان يبذخوا؟ انهم عابرون هنا. قد يطردهم المالك في أي يوم ويكون عليهم ان يهيموا على وجوههم من جديد، دون وسائط يحملون عليها متاعهم. انهم يعيشون مع البطالة الجاهزة دائماً، وسيكون عليهم عندها ان يعودوا للنوم تحت شجرة.

تطلع الى الكاتنجا الصفراء، التي جعلها الغروب مائلة الى الاحمرار. اذا جاء الجفاف فلن تبقى نبتة خضراء واحدة.

سرت قشعريرة في جسده. فطبيعي ان يأتي الجفاف. منذ ان وعى الدنيا والأمور على هذا الحال. وقبل ان يعي على الدنيا، بل وقبل ان يولد، كان يحدث الشيء ذاته دوماً: السنوات الطيبة تتناوب مع السنوات العجاف. ان الكارثة قادمة على الطريق، وربما هي قريبة منه. حتى العمل لايستحق العناء. كان يسير نحو البيت، صاعداً المنحدر، والحصى البيضاء تتدحرج تحت نعليه، فيما الكارثة تدنو باقصى سرعة وبها رغبة في قتله.

أدار وجهه ليهرب من فضول الأطفال وليرسم اشارة الصليب. انه لايريد ان يموت. انه ينتظر ان يجوب الدنيا، ان يرى أراضي جديدة، ان يتعرف على أناس مهمين مثل دون توماس صاحب الطاحونة. لم يكن فابيانو يخشى مقارعة سوء الطالع والتغلب عليه. انه لايريد الموت. كان مختبئاً في البراري مثل انسان بدائي. وكان فظاً وغبياً مثل انسان بدائي. لكنه سيخرج من الكهف يوما ويمشي مرفوع الرأس.. سيكون رجلاً.

- رجل يافابيانو.

هرش فكه المغطى بالشعر. توقف وعاد لاشعال سيجارته. لا، قد لا يصبح رجلاً أبداً: سيكون كما كان طوال حياته، كابرا يقوده البيض، أشبه ببهيمة في مزرعة غريبة.

وماذا بعد؟ كان فابيانو واثقاً من ان كل هذا لن ينتهي قريباً. لقد عرف أياماً لم يذق فيها طعاماً. وكان يشد الحزام، ويقلص معدته. لقد عاش سنوات

عاش قرنا من الزمان. لكنه اذا امامات جائعاً على قرني ثور حادين، ... خلف أبناء أقوياء، سينجبون بدورهم أبناء آخرين.

كل شيء كان جافاً من حوله. والمالك كان جافاً أيضاً، وكان نزقاً مثلما كان لصاً وكثير الطلب، وشائكا مثل نبتة صبار.

كان لابد للطفلين من اتباع الطريق القويم، من ان يتعلما جمع المانداكارو للمواشي، وتركيب الاسيجة وترويض الحيوانات البرية. لابد لهما من ان يخشوشنا، من ان يتحولا الى بدائيين حقيقيين. فاذا لم يصمتا ويتوقفا عن طرح اسئلتهم الكثيرة، سيكون مصيرهما كمصير دون توماس صاحب الطاحونة. ياللمسكين! ماذا نفعته كثرة الكتب والجرائد؟ لقد مات بسبب معدته المريضة ووهن ساقيه.

في يوم ما... أجل، حين يختفي الجفاف الى الأبد ويسير كل شيء على مايرام... ولكن، أيمكن للجفاف أن يختفي الى الأبد وان يسير كل شيء على مايرام؟ إنه لايعلم. لابد أن دون توماس صاحب الطاحونة قد قرأ شيئاً حول هذا الأمر. ولكن، حين يتحرر الأطفال من هذا الخطر، فسيكون بامكانهم ان يتكلموا، وان يسألوا، وان تكون لديهم كل الأهواء التي يشاؤون. أما الآن فعليهم ان يتصرفوا كأناس من صنفه.

وصل الى فناء البيت المظلم والواطىء، ذي القرميد الأسود، مخلفاً الجوازيرو وراءه، وكذلك الدرب والحجارة التي يلقون بينها الثعابين الميتة. كانت نعال الصغيرين تدق الأرض البيضاء المستوية. والكلبة بالينا تركض وقد فتحت فمها.

لابد ان دونيا فيكتوريا في المطبخ الآن، تجلس القرفصاء الى جوار الموقد، وفستانها الموشى بالزهور مجتمع بين فخذيها وهي تعد العشاء. أحس فابيانو برغبة في الطعام. وبعد العشاء، سيتحدث الى دونيا فيكتوريا بشأن تربية الطفلين.

الفصل الثالث

زنزانة

ذهب فابيانو الى سوق المدينة ليشتري مؤونة للبيت. كانوا بحاجة للملح والدقيق، واللوبياء، والسكر. كما طلبت منه دونيا فيكتوريا أن يأتيها بزجاجة كير وسين وقطعة من قماش قطني ملون. لكن كير وسين دون ان اغناسيو كان ممزوجاً بالماء، والقماش المطلوب كان غالي الثمن.

جاب فابيانو المتاجر بحثاً عن القماش، وكان يساوم بالحاح وهو يخشى ان يقع ضحية غش. كان متردداً، وكانت الشكوك الكبيرة التي تساوره تضفي عليه سمات البلاهة. عند الظهيرة أخرج النقود وهو راغب بالشراء، لكنه مالبث ان تراجع نادما ليقينه بان جميع العاملين في المتاجر يسرقون في السعر وفي المقاس. أعاد صر الأوراق النقدية في طرف المنديل وخبأها في جيبه، ثم اتجه الى حانة دون اغناسيو، حيث كان قد ترك حوائجه.

وهناك اقتنع مرة أخرى ان الكير وسين معمد بالماء وقرر ان يشرب كأساً من الخمر، اذ انه كان يشعر بالحر. أحضر دون اغناسيو زجاجة الخمر، وأفرغ فابيانو الكأس دفعة واحدة، ثم بصق ومسح شفتيه بكمه، وقطب حاجبيه. انه ليقسم ان الخمرة ممزوجة بالماء. لماذا تضيف ماء الى كل شيء يادون اغناسيو؟ تساءل في ذهنه. ثم تجرأ ووجه سؤاله الى البائع:

ـ لماذا تضيف الماء الى كل شيء؟

تظاهر دون اغناسيوبانه لم يسمع. ومضى فابيانوليجلس على الدكة، مقرراً تبادل الحديث مع أحد. لقد كانت ذخيرته من المفردات محدودة جداً، لكنها في ساعات النشوة كانت تغتني ببعض تعابير دون توماس صاحب الطاحونة. يالدون توماس المسكين. رجل محترم مثله يخسر كل شيء ويتشرد كبطال، يجوب الأفاق حاملاً متاعه على كاهله. وهو الشخص المعتبر، الذي يشارك في الانتخابات. من كان يصدق حدوث هذا؟

في هذه اللحظة ربت عسكري أصفر على كتفه:

ـ كيف حالك أيها الصديق؟ أنلعب معا سبعة ونصف؟

أبدى فابيانو احترامه للزي العسكري، وتلعثم محاولاً النطق بالكلمات التي كان يسمعها من دون توماس صاحب الطاحونة:

ـ وهو كذلك. فلنذهب ولانذهب. أعني.. أخيراً.. رغم كل شيء.. الأمر ممكن. حسناً.

نهض وسار وراء الأصفر، الذي كان ممثلاً للسلطة وآمراً. لقد كان فابيانو مطيعاً دوماً. كان له دماغ ونخاع، لكنه يفكر قليلاً، ويتمنى قليلاً، ويطيع.

اجتازا حجرة المكتب، ثم الدهليز، ووصلا الى صالة حيث كان عدد من الرجال يلعبون الورق على حصيرة.

قال الشرطي آمراً:

ـ افسحوا المجال فقد جاء أناس.

التصق اللاعبون ببعضهم. وجلس الرجلان، ثم تناول العسكري الاصفر المطرقة الخشبية. لقد كان حظه سيئاً جداً، حتى ان العسكري أخذ يسلبه كل شيء. أحس فابيانوبالضيق. لابد ان دونيا فيكتوريا ستغضب، وهي محقة في ذلك.

ـ حسن.

نهض غاضباً ومقطباً، وخرج من الصالة.

ناداه الاصفر:

ـ انتظر يااابن البلد.

• لم يلتفت فابيانو الذي كانت وجنتاه تتقدان. مضى الى دون اغناسيو ليطلب منه الحزم المحفوظة لديه. ارتدى معطفه، وثبت أحزمة جرابه على كتفيه واتجه الى الشارع.

تحدث وهو تحت شجرة الساحة الى دونيا ريتا صاحبة الدكان، دون ان يجرؤ على العودة الى بيته. أية أعذار سيقدم لدونيا فيكتوريا؟ كان يحاول اختلاق تفسير عصي: سيقول انه أضاع الرزمة التي تحتوي القماش، بل خير له ان يقول انه دفع في الحانة ثمن زجاجة خمر لدونيا ريتا. لقد تشوش تفكيره، فخياله ضعيف، وهو لايعرف الكذب. في جميع الاعذار التي كان يختلقها محاولاً تبر ير فعلته كانت تظهر صورة دونيا ريتا، وهذا كان يزعجه. سيدبر رواية بدونها. سيقول انهم سلبوا منه النقود التي كان سيشتر ي بها القماش. ألم يحدث هذا؟ لقد سلبه الصغار في لعبة السبعة والنصف. ولكن عليه ألا يذكر لها شيئاً عن اللعب. سيقول انه نسي القماش مع بعض الأوراق النقدية في المعطف فاختفت كلها. سيقول هكذا: « اشتر يت المؤونة. وتركت المعطف والكيس في حانة دون اغناسيو. التقيت بعسكري أصفر ». لا، لم يلتق بأحد. انه يخطيء من جديد. أحس برغبة في الاشارة الى العسكري. فليقل انه أحد معارفه القدماء، صديق طفوله. ستفخر المرأة بهذا الخبر. وقد لاتهتم به مطلقاً. فهي قليلة الميل الى المفاخرة. كل شيء محلول. لقد اختفت النقود من جيب معطفه في حانة دون اغناسيو. وهذا يحدث بشكل طبيعي.

كان يكرر ان هذا طبيعي عندما دفعه أحدهم، قاذفاً به للاصطدام بالشجرة. كان النهار يمضي، فيما بدأ الظلام بالانتشار. وكان الرجل المكلف بالاضاءة يشعل الفوانيس وهو فوق سلم. شع الضوء فوق برج الكنيسة، وتأمل القاضي، دكتور الحقوق نفسه أمام الصيدلية، ومر جابي البلدية وهو يعرج،

حاملاً تحت ابطه دفاتر ايصالات الدفع، وطافت عربة القهامة في أرجاء الساحة لتجمع قشور الفاكهة، وخرج الكاهن من بيته وفتح المظلة ليتوارى عن الحارس، ومضت دونيا ريتا صاحبه الحانوت الى بيتها

ارتعش فابيانو. سيصل الى المزرعة وقد تقدم الليل كثيراً. لقد تأخر بسبب شيطان اللعب ولانه داخ بالخمرة.. لقد سمح للوقت بالمرور. لم يشتر الكبريت وسين، وعليه ان يضيء البيت طوال اسبوع بقطع من الخشب التي تحتوي على راتينج. غذ الخطى ليرحل. لكن دفعة أخرى جعلته يفقد توازنه. التفت ورأى الى جانبه ذلك العسكري الأصفر، يتحداه، بوجه متشنج وجبهة مقطبة. أراد أن ينفض قبعته الجلدية بأنف المعتدي. فضربة قوية من قبعته تجعل هذه الأشكال الممسوخة من البشر ترتمي في الوحل. نظر الى الناس والى الحياة المحيطة به وكبح غيظه. انه معتاد على الصياح كديك في الكاتنجا، أما في الشارع فانه يتذلل.

ـ ليس لحضرتك الحق بالتحرش بمن لم يفعل لك شيئاً.

فقال الشرطي ساخراً:

ـ ماكل هذا!

ثم شتم فابيانو لأنه غادر الحانة دون ان ينطق بكلمة وداع.

فدمدم القروي:

ـ هذا كذب. هل أنا مسؤول ان كنت أنت مشغولاً مع جماعتك؟

كان ممثل السلطة ينتصب أمامه مستعداً، دون ان يدري كيف، لتوريطه في قضية قضائية. وعندما لم يبد فابيانو عذراً، اقترب وداس بكعب جزمته العسكرية على قدم راعي المواشي.

فاعترض فابيانو:

ـ هذا لايجوز أيها الشاب. انني ساكت. انظر، هاهي قدمي مهروسة وساخنة.

استمر الآخر يضغط بشدة ففقد فابيانه صبره وشتمه ذاكراً أمه. عندئذ أطلق

الاصفر صفارته، وعلى الفور أحاطت مجموعة من شرطة المدينة بالشجرة.

صرخ العريف:

ـ تقدم الى الامام.

سار فابيانو مضطرباً، دخل السجن ـ دون أن يفهم شيئاً ـ سمع اتهاماً رهيباً ولم يدافع عن نفسه.

قال العريف:

ـ حسن. استدر يا ابن البلد.

هوى فابيانو على ركبتيه وتلقى عدة ضربات بصفحة السيف على صدره وظهره. ثم فتحوا باباً ودفعوه دفعة قوية ألقت به في ظلام الزنزانة. صرّ المفتاح في القفل، ونهض فابيانو وهو يترنح فاقداً الوعي واستكان في أحد الاركان دون ان يتوقف عن التذمر.

ـ همم! همم!

لماذا فعلوا به ذلك؟ هذا مالم يستطع فهمه. انه شخص حسن السيرة والسلوك، أجل ياسيدي، لم يدخل السجن أبداً. وهاهو يقع فجأة في نزاع لامبرر له. لقد كان مشوشاً جداً، حتى انه لم يصدق وقوع هذه المصيبة. لقد انهالوا جميعهم عليه فجأة، كمن أصابتهم لعنة. ان رجلاً لايستطيع احتمال هذا.

ـ طيب، طيب.

مر بيده على ظهره وعلى صدره. أحس أنه محطم. وكانت عيناه الزرقاوان تلمعان كعيني قط. لابد انهم حبسوه ليضربوه فيما بعد. لكنها قضية غريبة تماماً. لقد راودته الشكوك بعد دقائق، وهم يهز رأسه، رغم آلام الرضوض التي يعاني منها.

حسن. العسكري الأصفر... أجل، كان هناك عسكري أصفر، مخلوق شقي، كان باستطاعته، هو فابيانو، ان يهشمه بصفعة واحدة. ولم يهشمه بسبب الرجال الذين يأمرهم. بصق بازدراء:

ـ البطال، الجبان، الحثالة.

انهم يهينـــون رب اســـرة من أجـــل عيني شخص فاسـد. فكـر بزوجتـه، وبولديه. وبالكلبة. وحاول جاهداً ان يرى في العتمة. بحث مثل قط عن جرابه الذي سقط على الأرض، وتأكد من أن جميع الأشياء التي اشتراها موجودة هناك. قد يكون فقد شيئاً منها أثناء المعمعة. تذكر قماشاً رآه في احدى الدكاكين الاخيرة التي دخلها. قماش جميل، سميك، عريض، ملون ومزين بأزهار، تماماً كما تريده دونيا فيكتوريا. لقد ساوم لتخفيض سنتافو واحداً في كل متر، وانقضى النهار وهو على هذا الحال.

انشغـل من جديـد بالجـراب. لابـد ان دونيـا فيكتـوريا قلقة لتأخره. فكر بالبيت المظلم وبـــالصغـير ين يقبعـان الى جانب النـار، بينـما تقـوم بالينـا على حراستهم. لابد انهم أقفلوا الباب.

شد ساقيه وأراح جسده الموجوع على الجدار. لو أنهم اتاحوا له فرصة لكان أوضـح لهم كل شيء جيـداً. لكنهم أخـذوه على حين غرة مما جعـل الأمور تختلط عليه. ومن الذي لاتختلط عليه الأمور أمام هذا السيل من الترهات؟ انه غير قادر على الاقتنـاع بان هذه اللعنـة كانت من نصيبـه. لابـد ان في الأمـر التباساً. ربما أخطأ الأصفر وظنه شخصاً آخر. لايمكن ان يكون الأمر غير ذلك.

أيكـون تحرش وغـد مستفـز اذن كافيـا للالقـاء برجـل مسكـين في غياهب السـجن وضـربـه؟ انـه يعـرف جيداً ان الأمور كذلك، وهو معتاد على جميع ألوان العنف وجميع أشكال الظلم. وقد كان يواسي معارفه الذين يذهبون الى السجون ويتعـرضـون لكـل أصنـاف القســوة البـوليسية بقوله: « اصبروا. فليس في تلقي الضرب من الحكومة حط من الكرامة».

لكنه يصر على أسنانه الآن ويلهث. أكنت أستحق كل هذا العقاب؟

ـ همم!

ورغم كل جهـوده، فانـه لم يقتنـع بان العسكـري الأصفـر هو الحكـومـة. فالحكومة تعني شيئاً مختلفاً ومضبوطاً، وهي لايمكنها أن تخطيء بهذا الشكل. ان العسكـري الاصفـر هنـاك الآن، في مكـان قريب، خارج القضبـان، ضعيف

وشـريـر، يلعب الـورق مع المـاتوتو[1] على الحصيرة ثم يستفزهم بعد ذلك. على الحكومة ألا ترضى بسفاهة كهذه.

ثم ماهي الفـائـدة من العسكـري الأصفـر في نهاية المطاف؟ ضرب الجدار بمقـدمـة قدمـه وصاح غاضباً: مافائدة العساكر الصفر؟ راود القلق بقية المساجين واقترب السجان من القضبان، فاستكان فابيانو:

ـ حسن، حسن. لم يحدث هنا أي شيء.

لديـه أشيـاء كثـيرة. انـه عاجز عن التعبير عنها، لكنها موجودة. فليذهبوا ويسألوا دون توماس صاحب الطاحونة، الذي يقرأ الكتب ويعرف أين هو موضع أنفه. ان دون توماس صاحب الطاحونة سيحسن رواية كل هذه الأمور. أما هو، فابيانو، فانه جاهل لايعرف كيف يروي شيئاً. انه يرغب بالعودة الى جانب دونيا فيكتـوريـا والنوم على سرير العوارض الخشبية فقط. لماذا جاؤ وا للتحرش بالرجل الذي لايريد إلا أن يستر يح؟ كان عليهم أن يتدخلوا مع أناس آخرين.

ـ همم!

كل شيء سيء.

ـ همم!

أهم شجعـان؟ تخيـل العسكـري يقـذف بنفسه في مواجهة كانغاسير و[2] في الكاتنجا. انه لمشهد طريف: لابد انه سيموت رعباً.

تذكر البيت القديم الذي كان يسكنه، تذكر المطبخ، والقدر التي تغلي على المـوقـد الحجـري، ودونيـا فيكتـوريا وهي تضع الملح في الطعام. ثم فتح الجراب ثانيـة: كيس الملح لم يضـع. هذا حسن. دونيـا فيكتـوريـا تتذوق الطعام بالمغرفة المصنـوعـة من قشرة جوز هند. وفابيانو يناضل في الحياة من أجلها، من أجل أبنيه والكلبـة بالينـا التي كانت كواحـد من أفـراد الاسرة، والذكية كالبشر. أثناء هذه الرحلة الاخيرة الشاقة، وعندما اشتد الجفاف، كانت العائلة باسرها على وشك

---

(١) الماتوتو: الفلاحون

(٢) كانغاسير و: قاطع طريق في الصحراء.

الموت جوعاً، وكانت الكلبة هي التي جاءتهم بأرنب بري. لقد بدأت المسكينة تسيخ. لابد ان دونيا فيكتوريا القلقة قد دنت عدة مرات من الباب لتنصت الى قدمه. ولابد ان الديك يصفق بجناحيه، والبهائم تتقلب في الزريبة، وجلاجل الابقار ترن.

لو لم يحدث هذا... همم! بماذا كان يفكر؟ حاول أن يرى شيئاً من خلال القضبان المطلة على الشارع. اللعنة، كم هو الظلام دامس في الخارج! الفانوس الذي عند الناصية كان مطفأ، ربما لم يضع فيه رجل السلم إلا قدراً ضئيلاً من الكيروسين.

يالدونيا فيكتوريا المسكينة، الخائفة من الظلام! الطفلان سيكونان قرب النار، والقدر يصفر على الموقد الحجري، وبالينا متيقظة، وقنديل الخشب معلق في طرف عصا خارجة من الجدار.

كان متعباً جداً ومتألماً، فراح يغفو وسط هذه المصيبة. كان هناك سجين مخمور يهذي بصوت عال، وبضعة رجال يجلسون القرفصاء حول نار تملأ السجن بالدخان. كانوا يتحدثون ويتذمرون من الحطب المبلل.

كان فابيانو يهمهم، ورأسه الثقيل يميل على صدره فيحاول جهده الاحتفاظ به منتصباً. كان عليه ان يشتري الكيروسين من عند دون اغناسيو. فعيون زوجته وابنيه تتأثر من الدخان.

استيقظ مذعوراً. ألا يهذي ويخلط بين الناس؟ ربما هو أثر الخمرة. لا، فهو لم يشرب سوى كأس واحدة، كل مافيها لايتجاوز مقدار أربعة أصابع. لو انهم يتيحون له فرصة لكان روى لهم كل ماجرى.

كان يسمع ترهات السكران غير المتزنة. وهو، فابيانو، يتلفظ كذلك بكلمات لامعنى لها، ويحادث نفسه كمجنون. لكنه غضب لهذه المقارنة وضرب قبضته بالجدار عدة مرات. انه جاهل، أجل ياسيدي، وهو لم يتعلم شيئاً ولايعرف كيف يعبر عما يريد. أيكون مسجوناً لهذا السبب؟ هل هذا ممكن؟ أيعني أنهم قد

يزجون برجل الى السجن لأنه لايتقن الكلام بشكل جيد؟ وما الضرر في جهالته؟ لقد عاش وهو يعمل كعبد. ينظف مورد المواشي، ويصلح الاسيجة، ويعالج الحيوانات. لقد عمل في بقايا مزرعة لاقيمة لها، فاعاد كل شيء فيها الى نصابه، كما هو واضح. أيمكن أن يكون مذنباً لأنه جاهل؟ من هو المذنب؟

لو لم يكن كذلك... انه لايعرف شيئاً. ونما خيط فكرته، علا صوته ثم انقطع. كان من الصعب عليه التفكير. لقد عاش مع البهائم... لم ير مدرسة في حياته. ولهذا لايستطيع الدفاع عن نفسه، ووضع الأمور في نصابها. كان شيطان هذه القصة يدخل رأسه ويخرج منه. انه لشيء يبعث الجنون في انسان مسيحي. لو انه كان متعلماً بعض الشيء لتمكن من فهم المسألة. لكن ذلك مستحيل، فهو لايعرف سوى مقارعة الحيوانات.

اخيراً... بامكان دون توماس صاحب الطاحونة ان يخبرهم بكل شيء. فليذهبوا اليه ويسألوه. دون توماس رجل طيب، رجل يمكن القول عنه انه متعلم. كل امرىء كما أراده الله يكون. وهو، فابيانو، هكذا بالضبط: جاهل.

لك ماتشاء... اهمم! انه ينسى. وهاهو ذا يتذكر الآن رحلته في الصحراء، حين كان الجوع ينهكه. كانت أرجل الصغيرين نحيلة، كأنها الابر، وكانت دونيا فيكتوريا تمشي متثاقلة تحت الصندوق. وعند ضفة النهر، فرضت عليهم الحاجة أكل الببغاء التي لاتحسن الكلام.

وفابيانو لايحسن الكلام أيضاً. انه يلهو أحياناً باطلاق تسميات معكوسة. وهذا يؤكد له تأكيداً جازماً انه لاجدوى من أي شيء. ليس بامكانه ترتيب الافكار التي تدور في دخيلته... آه! لو كان قادراً لهاجم العساكر الذين يضربون خلق الله المسالمين.

ضرب رأسه، ضغط عليه. ماالذي يفعله هؤلاء المتحلقون حول النار؟ ماالذي يقوله هذا المخمور الذي يزعق كمجنون، مستنفدا قواه بحماقة؟ أحس برغبة في الصراخ، في الاعلان بصوت مرتفع بانهم جميعاً لاينفعون شيئاً. سمع صوتاً رقيقاً: احداهن تبكي في زنزانة النساء وتلعن القمل. لابد انها من بنات

الهـوى. وهـذه أيضاً لاتنفع في شيء. كان فابيانو يريد ان يجار متوجهاً الى المدينة بأسرهـا، ليعلن للقـاضي حامـل الـدكتـوراه في الحقـوق، ومفـوض الشـرطة، والكاهن، وجباة البلدية بانهم جميعاً لاينفعون شيئاً. أما هو، والرجال المتحلقون، والمخمور، وامرأة القمل، فهم مأساة حقيقية ولافائدة فيهم سوى انهم ينفعون في احتمال الجلد والضرب. هذا مايريد قوله.

وكـانت هنـاك أيضـاً تلك النار المتنقلة التي تمضي في روحه وتجيء. أجل، انهـا هنـاك. كيف ذلـك؟ انـه بحـاجـة للراحة. يشعر بآلام في رأسه، ربما سببها ضربـات العـريف ذي السيف. ان رأسه كله يؤلمه، كما لو ان ناراً بداخله، كما لو ان مرجلاً يغلي في دماغه.

يالـدونيـا فيكتـوريـا المسكينة. انها قلقة وتحاول طمأنة الطفلين. ولابد ان بالينا تقوم بالحراسة قريباً من الموقد. لولاهم...

لقد تمكن فابيانو من ترتيب أفكاره الآن. ان مايكبله هو الاسرة. فهو يعيش مثـل عجـل مربـوط الى وتـد، محتمـلاً حديـدة الوسم. لو لم يكن ذلك الشخص عسكـريـاً أصفـر لما داس قدمـه، لا. ان مايـوهن جسده هو تذكر زوجته وولديه. ولولا انه داس قدمه لما كان حنى ظهره، لا. لولا ذلك لهرب من هنا كنمر واقترف مجزرة، ولحشـا البنـدقيـة ليطلق عيـاراً صائباً على العسكري الأصفر. ولكن لا. ليس العسكري الأصفر سوى بائس لايستحق ولو ضربة بظاهر اليد. من الخير له ان يقتل اولئك الذين يوجهون الجندي الأصفر، ولايترك منهم ولو نموذجاً واحداً على قيـد الحيـاة. هذه هي الفكـرة التي كانت تلهب رأسه. ولكن هناك الزوجة، وهناك الابنان، وهنالك بالينا.

أطلق فابيـانـو صرخـة ليرعب المخمـور، والـرجـال المتحلقين حول النار، والسـجـان، والمـرأة التي تشكـو من القمـل. أحس بهذا القيـد الذي يضغط على عنقه. أعليه ان يواصل احتماله؟ دونيا فيكتوريا تنام مسهدة على سرير العوارض الخشبيـة. والصغـير ان جاهـلان، مثـل أبيهـما. عنـدما يكبر ان سيرعيان مواشي مالك غير منظور وسيدوسهما بقدمه ويضربهما عسكري أصفر.

الفصل الرابع

دونيا فيكتوريا

كانت دونيا فيكتوريا تنفخ النار وهي جالسة القرفصاء أمام الاحجار التي يستخدمونها كموقد، وفستانها المزين بالزهور ملتصق باليتيها. انطلقت سحابة رماد من بين الجمر وغطت وجهها. ملأ الدخان عينيها، وانزلق العقد ذو الخرزات البيضاء والزرقاء من عنقها واصطدم بالقدر. مسحت دونيا فيكتوريا دموعها براحتي يديها، وأطبقت جفونها، ثم أعادت العقد الى صدرها وواصلت النفخ برغبة أشد وقد ازداد انتفاخ خديها.

لعقت ألسنة اللهب فروع الانجيكو[1]، ثم خمدت ولم تلبث ان عادت تستمر متألقة بين الاحجار. حنت دونيا فيكتوريا ظهرها وحركت المروحة اليدوية. أزّ وابل من الشرر في حمام مضيء بالنسبة للكلبة بالينا، التي كانت متكورة قرب الدفء، تغفو على روائح الطعام.

استيقظت بالينا لدى احساسها بفساد الهواء وطقطقة الجمر، وتراجعت محتاطة، خشية حرق وبرها، ووقفت مبهورة تراقب النجيمات الحمراء التي كانت تنطفىء قبل ان تصل الى الأرض. أبدت اعجابها بهذه الظاهرة بحركة من ذيلها، وأرادت الاعراب عن هذا التقدير لسيدتها، فدنت منها بقفزات قصيرة،

(١) انجيكو: اسم عام لنوع من النباتات الشجرية، كان الهنود يستخدمون ثمارها في اعداد نوع من السعوط.

لاهثة، وانتصبت على قائمتيها الخلفيتين، محاكية البشر، لكن دونيا فيكتوريا لم تكن راغبة بشيء من التملق.

ـ انصرفي!

وركلت الكلبة بقدمها، فابتعدت هذه ذليلة ومضطربة المشاعر.

لقد استيقظت دونيا فيكتوريا باكراً مع القمر. وفي لحظة لاتخطر على بال قالت لزوجها سخافات تتعلق بالسرير المعدني. واكتفى فابيانو، الذي لم يكن ينتظر مثل هذا الهراء، بان دمدم «همم! همم!» وفضل ألا يقول شيئاً، لأن المرأة في الحقيقة كائن عصي على الفهم. استلقى على ارجوحة مفضلاً الاغفاء. وتنقلت دونيا فيكتوريا من مكان الى آخر، باحثة عن عمل تغرق نفسها فيه. وبما انها وجدت كل شيء على مايرام، فقد راحت تشكو الحياة. وهاهي الأن تنتقم من بالينا بركلها بقدمها.

دنت من نافذة المطبخ الواطئة ورأت الصبيين يلعبان في مخاضة الوحل وقد غطاهما الطين حتى اذنيهما فيما هما يصنعان جواميس من الصلصال ويجففانها في الشمس وفي ظل شجرة الفناء، ولم تجد سبباً لتأنيبهما. فكرت مجدداً بالسرير المعدني ولعنت فابيانو في ذهنها. انهما ينامان على هذا الشيء، وهما معتادان عليه، لكن النوم على سرير مغطى بالجلد، كما يفعل آخرون، سيكون أمراً مفرحاً.

منذ أكثر من سنة وهي تحدث زوجها بهذا الشأن. وقد كان فابيانو موافقاً أول الأمر. همهم بحسابات لبعض الوقت، لكنه لم يصل الى نتيجة محددة، سواء فيما يتعلق بالجلد أم بهيكل السرير المعدني. لابأس. بامكانهم شراء قطعة الاثاث المنشودة عن طريق الاقتصاد بالملابس والكيروسين. وردت دونيا فيكتوريا ان هذا مستحيل لأن كسوتهما سيئة، وابنيهما يمضيان عاريين، ولأنهم جميعاً ينامون مع المغيب، ولايضيؤون في الحقيقة نوراً في البيت. وتناقشا في امكانية التقليص من نفقات اخري. وبما انهما لم يتفقا، فقد ألمحت دونيا فيكتوريا، بطريقة فجة، الى المال الذي ينفقه زوجها في أيام الأعياد، على اللعب والخمر. فاستاء فابيانو وندد بالحذاء ذي الكعب الذي تستخدمه هي في الأعياد، والذي هو غال بقدر ماهو

عديم الجدوى. فهي تتمايل وتترنح عندما تنتعله كما لو كانت ببغاء، فتبدو مضحكة. غضبت دونيا فيكتوريا جداً لهذه المقارنة، ولولا الاحترام الذي تكنه لفابيانو، لردت عليه بشيء من القسوة. وفعلاً، كان الحذاء يضغط على أصابعها، مسببا لها التآليل. وكانت تفقد توزانها وتتعثر وتعرج عندما تنتعل كعبي النصف شبر. لابد انها كانت تبدو مضحكة، لكن هذا الرأي الذي أبداه فابيانو أحزنها كثيراً.

وبعد انزياح هذه الغيوم وتجاوز هذا الضيق، عاد السرير للظهور في افقها الضيق.

انها تفكر به الآن بمزاج معكر، وتعتبره أمراً مستحيل التحقيق، لكنها تفرضه على ذهنها وهي تقوم بأي عمل من أعمال البيت.

مضت الى الغرفة، مرت من تحت ارجوحة النوم التي يشخر فيها فابيانو، وأخرجت الغليون وورقة تبغ من الخزانة ثم خرجت الى الفناء. كان جرس البقرة البرتقالية يرن من جهة النهر. ان فابيانو أهل لأن ينسى وسم البقرة البرتقالية. أرادت ايقاظه لتسأله عن ذلك، لكنها مالبثت ان سهت عن الأمر وهي تتطلع الى الشوك والصبار الناتىء في البرية.

هب من الأرض الكلسية هواء ملتهب، فسرت في جسدها قشعريرة لتذكرها الجفاف، شحب وجهها الاسمر واستدارت حدقتا عينيها السوداوين كانهما تواجهان الرعب. حاولت ابعاد الذكرى، خشية ان تتحول الى واقع. ورددت بصمت صلاة «آفي ماريا»، وبعد ان استعادت الطمأنينة تمكنت من نقل اهتمامها الى فجوة اكتشفتها في زريبة المناعز. فركت ورقة التبغ بين راحتيها الكبيرتين، ثم ملأت الغليون الفخاري ومضت لاصلاح السياج. وبعد ان انتهت من هذا العمل، قامت بجولة في البيت، مجتازة سور الفناء ودخلت الى المطبخ.

ـ ان فابيانو أهل لأن يكون قد نسي البقرة البرتقالية.

انحنت وأججت النار، ثم تناولت جمرة بالملعقة وأشعلت بها الغليون

وراحت تمص انبـوب القصب الملوث بفضـلات التبـغ. بصقت ثانيـة، وبتـداع غريب، ربطت بين هذه الحـركـة وذكـرى السـرير: اذا وصلت البصقة الى طرف الفناء، فانها ستشتري السرير قبل نهاية العام. ملأت فمها باللعاب، ومالت الى الامـام، لكنهـا لم تحقق ما كانت تأمـل فيـه. كررت المحـاولة عدة مرات، وكانت جميعها بلا طائل. النتيجة الوحيدة التي حصلت عليها هي انها أحست بجفاف في حلقها. نهضت فاقدة الحماس. هراء، هذا لاينفع في شيء.

مضت الى الـركن حيث توجـد الخـابيـة فوق ركيـزة ثلاثية القوائم وتناولت جرعة ماء. كان الماء مالح المذاق.

ـ اف!

لقـد اوحى لها ذلـك بصـورتـين متر افقتـين تقـريباً، خلصتا الى الاندماج ببعضهما: قدور ومناهل. ركزت اصبعها السبابة على جبهتها حائرة.. بماذا تفكر؟ نظـرت الى الأرض، مركـزة تفكـيرهـا، في محاولـة لأن تتذكر شيئاً، فرأت قدميها المكورتين وكاحليها الغليظين. وعاودتها الفكرة للتو: المنهل آخذ بالجفاف والقدر لم تُرفع عن النار.

ما أن رفعت الغطاء حتى تلقت على وجهها المتورد دفقة من البخار. ترى كيف أمكن لها ان تحرق الطعـام الآن؟ سكبت مزيـداً من المـاء وحـركت الطعـام بمغـرفـة مصنوعة من نصف قشرة جوز هند، ثم تذوقت الحساء. لم يكن له مذاق طعـام البشـر لقلة الملح فيـه. مضت الى الخـزانـة حيث يحتفظون بالخوابي وقطع اللحم المقدد، وفتحت كيس ملح أخرجت منه حفنة وألقت بها في القدر.

انصب تفكـيرهـا الآن على المنهـل، حيث يوجـد سائـل قاتم تتمـرغ فيـه المواشي وتشرب منه. وأحست بالخوف من الجفاف وحسب.

تأملت أقـدامهـا المسطحـة من جديـد. انهـا ليست معتادة حقاً على لبـس الاحـذيـة، لكن هذا النقـد من جانب فابيانو أزعجها. أقدام ببغاء. وهي كذلك دون شك. فالريفيات يمشين هكذا. لماذا الخجل اذن؟ وأحست بالغيظ للمقارنة.

يالليغاء المسكينة! لقد رحلت برفقتها، كانت تقبع في القفص المتأرجح فوق صندوق القش. تمتمت: « يابيغائي ». هذا هو الشيء الوحيد الذي كانت تحسن قوله. وكانت تنادي المواشي أيضاً كما يفعل فابيانو وتعوي مقلدة بالينا. يالليغاء المسكينة. لم تكن دونيا فيكتوريا ترغب بتذكر كل هذا. كانت قد نسيت حياتها السابقة وأصبحت كما لو انها ولدت بعد وصولها الى هذه المزرعة. لكن الاشارة الى الحذاء فتحت لها جرحاً قديماً، وحينئذ ظهرت لها الرحلة. لقد كان صندلها في ذلك الحين مهترئاً لكثرة مامشت بين الحجارة. كانت متعبة، تكاد تموت جوعاً وهي تحمل الابن الاصغر والصندوق وقفص الببغاء. وكان فابيانو خبيثاً.

ـ لئيم.

تطلعت مجدداً الى قدميها. يالليغاء المسكينة، لقد دفعتهم الحاجة الى قتلها عند حافة النهر، ليحصلوا على وجبة للاسرة. كان الحيوان متضايقاً حينها، وكان يصوب عينيه الصارمتين الى الكلبة ويمشي متعثراً، مثل الفلاحين في أيام الأعياد. لماذا أيقظ فيها فابيانو الذكرى الآن؟

وصلت الى باب البيت ونظرت الى اوراق الكاتنجا الصفراء. تنهدت. لن يسمح الله بوقوع نكبة اخرى. هزت رأسها وحاولت ان تجد ماتشغل به نفسها لتنسى. تناولت الخابية الكبيرة ومضت الى أقصى البيت، فملأت الصحن الذي تشرب منه الدجاجات، وأعادت ترتيب العيدان التي في القن. مضت بعد ذلك الى الفناء لتسقي النباتات. ونادت الصبيين ليدخلا الى البيت، لان الوحل قد وصل حتى حدقات عينيهما. وأنبتهما:

ـ عديمو الحياء! خنازير! قذرون كـ . . .

توقفت. كانت تريد ان تقول انهم قذرون كبيغاوات.

هرب الصغير ان ومضيا للاختباء في الصالة، تحت الخزانة. وعادت دونيا فيكتوريا تلتفت الى الموقد، ثم أشعلت الغليون من جديد. كانت القدر تصفر، وكان هواء ساخن محمل بالغبار يهز نسج العنكبوت، وكانت بالينا تحك جلدها

بأسنانها وتتصيد الذباب. سمعت شخير فابيانو المنتظم، وأثر هذا الايقاع على أفكار دونيا فيكتوريا: فابيانو يشخر بكثير من الطمأنينة. وربما ليس هناك من خطر: لابد ان الجفاف بعيد عنهم.

وغرقت دونيا فيكتوريا مجدداً في الحلم بالسرير ذي القاعدة الجلدية. لكن الحلم أخذ يختلط بذكرى الببغاء وصار عليها ان تقوم بمجهود كبير لفصل هدف رغبتها.

كل شيء كان مستقراً ومأموناً. نوم فابيانو، والنار التي تطقطق، ورنين الجلاجل في أعناق المواشي، بل ان طنين الذباب كان يبعث فيها هذا الاحساس بالاستقرار والأمان. أعليها ان تقضي حياتها كلها في النوم على عوارض خشبية؟ ثم انه في منتصف هذه العوارض توجد عقدة.. نتوء قاس وسط الخشب، مما يضطرها لأن تنكمش في أحد طرفي الفراش، وزوجها في الطرف الآخر، دون ان يتمكنا من التمدد براحة في منتصف الفراش. لم يكن ذلك يزعجها أول الأمر، فعودتها متعبة وقد انهكها الشغل، تجعلها قادرة على النوم حتى فوق مساء.. ولكن جاء وقت الرخاء، وأصبحوا يأكلون ويسمنون. كانوا لايملكون شيئاً من قبل، حتى اذا ماأضطروا الى الفرار، حملوا ملابسهم والبندقية وصندوق القش ومتاع البيت التافه. ولكن، هاهم والحمد لله يعيشون، ورب العمل يثق بهم.. انهم يكادون يكونون سعداء. ولاينقصهم إلا سرير من تلك الأسرة التي يستخدمها بنو البشر. كان هذا يسبب المرارة لدونيا فيكتوريا، وبما انها لم تعد تستنفذ قواها في العمل القاسي، فقد أصبحت تمضي قسطاً من الليل وهي تتقلب في الفراش دون ان تتمكن من النوم، لان عادة الاستسلام للنعاس منذ المغيب ليست بالعادة الحسنة.. فهي ليست كالدجاج.

عندما وصلت أفكار دونيا فيكتوريا الى هذا الحد، اتخذت لها مساراً آخر لتصب بعد قليل في الاتجاه الأول. أليست الثعلبة هي التي سطت على الدجاجة البنية؟ ليس على أية دجاجة، وانما على الدجاجة البنية... السمينة. وقررت ان

تنصب مصيدة بالقرب من قن الدجاج. غضبت، ستجعل الثعلبة تدفع غاليا ثمن الدجاجة البنية.

ـ اللصة!

وشيئاً فشيئاً بردت حدة غضبها. كان شخير فابيانو لايطاق. ليس هناك من رجل آخر قادر على مثل هذا الشخير. من الخير لها ان تنهض وتبحث عن غصن آخر لاستبدال هذا الغصن اللعين الذي لايسمح لها بان تتقلب على الفراش. لماذا لم تستبدل هذا الغصن المزعج من قبل؟ تنهدت. لن يتوصلوا أبداً الى اتخاذ قرار. الصبر. من الأفضل النسيان وعدم العودة للتفكير بسرير دون توماس صاحب الطاحونة، لقد كان لدى دون توماس سرير حقيقي، سرير من صنع نجار. . سرير من خشب مستو أملس، متصل ببعضه بفتحات أحدثها ازميل، وكل بروز فيه ينزل باحكام في الفتحة المخصصة له، وفوقه طبقة من الجلد المشدود باحكام والمثبت باتقان. هناك بمقدور انسان مسيحي ان يريح عظامه حقا.

لو انها تبيع الدجاجات والخنزيرة؟ ياللأسف، فالثعلبة اللعينة أكلت الدجاجة البنية، وهي أسمن الدجاجات. لابد من تلقين هذه الثعلبة درساً. ستنصب لها مصيدة الى جانب قن الدجاج لتكسر ظهر عديمة الحياء هذه.

نهضت ومضت نحو الحجرة بحثاً عن شيء ما، لترجع قانطة دون ان تتذكر ماالذي تريده. أين هو عقلها؟

جلست الى نافذة المطبخ الواطئة. كانت ساخطة، ستبيع الدجاجات والخنزيرة، وستتخلى عن شراء الكير وسين. لاجدوى من استشارة فابيانو، فهو يبدأ متحمساً دوما ويضع المشاريع والخطط. لكن حماسه لايلبث ان يفتر في الحال. قطبت جبينها ليقينها من ان زوجها قانع بمجرد فكرة امتلاك السرير فقط. لكن دونيا فيكتوريا تريد سريراً حقيقياً، سريراً من خشب وجلد، كسرير دون توماس صاحب الطاحونة.

الفصل الخامس

الابن الأصغر

لقد راودته الفكرة في مساء اليوم الذي وضع فيه فابيانو السرج على الفرس الشقراء وتأهب لتر ويضها. لم تكن فكرة بالضبط، بل رغبة مبهمة للقيام بأي عمل مهم يدهش به أخاه والكلبة بالينا.

كان فابيانو هو مثله الأعلى في تلك اللحظة، فابيانو المتسربل بملابسه الجلدية، والطماق، والسترة، وواقية الساقين، كان أهم مخلوق في هذه الدنيا. شرائط مهمازية ترن على الأرض، وحافة قبعته المائلة الى الوراء، والمثبتة بحزامها على الحنكين، تجعل وجهه الملوح بالشمس أكبر، وتشكل دائرة واسعة حول رأسه.

كانت الدابة مسرجة، والركابان مثبتين، وكانت دونيا فيكتوريا تثبت الفرس بامساكها من شفتها السفلى. شدّ الراعي حزام السرج ودار حول الحيوان على مهل ليتفحص كل التفاصيل. وتفادى رفسة دون أي تسرع، اذ التفت بجسمه فمر حافر الفرس قريبا من صدره، ملامسا طرف السترة. ثم قفز فابيانو في الحال على السرج. وابتعدت المرأة، وضجت الكاتنجا بصخب شديد.

كان الابن الأصغر قد تسلق سياج الحظيرة وجلس عليه وهو يلوي يديه المتعرقتين ويحدق بعينيه ليتمكن من الرؤية عبر غمامة الغبار التي ارتفعت أعلى من

نباتات الجبل. وبقي على هذا الحال دهرا، كمن أصابه مس بتأثير السعادة والخوف، الى ان عادت الفرس وراحت تقفز حول البيت هائجة، وكأن الشيطان دخل جوفها. وفجأة انقطع حزام السرج وحدث انهيار. أطلق الصغير صرخة وكاد يسقط عن السياج. لكنه مالبث ان هدأ. لقد وقع فابيانو واقفا على قدميه، وواصل بهدوء، فوق ساقيه المعوجتين كراعي أبقار، السيطرة على الموقف، فيما الرحال على ذراعيه، والركابان المفلتان في الجري اليائس يرتطمان أحدهما بالآخر، وحلقتا المهماز ين ترنان.

كانت دونيا فيكتوريا تمص غليونها بهدوء على مقعد البهو، وهي تفلّي رأس الابن الأكبر. وبما ان الابن الاصغر لم يقبل بهذه اللامبالاة بعد الحركة البارعة التي قام بها الأب، فقد مضى لايقاظ باليناالتي كانت راقدة تستر يح وبطنها المحمر مكشوف دون أي حياء. فتحت الكلبة عينيها، وأسندت رأسها على حجر الجلخ، ثم تثاءبت وغطت في النوم من جديد.

اعتبرها الطفل تافهة وانانية، فتركها غاضباً، ومضى ليشد أمه من كم ثوبها، لانه كان راغبا في التواصل معها. وجهت اليه دونيا فيكتوريا صيحة نفور، وبما أن الصغير ألحف عليها، فقد ضربته على رأسه.

ابتعد مغضباً وفيما هومستند على عمود في الفناء، رأى ان العالم بائس وبليد. اتجه الى الحظيرة، حيث تجأر وترفع وجوهها المقطبة. كان هذا مسلياً جداً، مما جعله ينسى انانية بالينا وتعكر مزاج أمه. أما اعجابه بابيه فكان في ازدياد.

نسي عدم الاكتراث واللؤم وملأت قلبه الصغير حماسة حقيقية. ورغم خوفه من الأب، فانه أخذ يدنو منه ببطء، واسند جسده على الطماق ولامس أطراف الملابس الجلدية: الطماق، والسترة، وواقية الساقين، والمهماز ين. وقد أدهشه رباط القبعة.

أبعده فابيانو دون ان يوليه أدنى اهتمام، ثم دخل الى الصالة وراح ينزع عن جسده كل هذه الأبهة.

استلقى الصبي على الحصيرة وأغمض عينيه. كان فابيانو رهيباً. لقد تضاءل راعي البقر الآن وهو على الأرض مجرداً من كل الملابس الجلدية، أما حين كان على صهوة الفرس الشقراء فقد كان رهيباً.

غلبه النعاس. وهبت ريح غطت بالغبار أوراق النباتات الشوكية، فيما كانت دونيا فيكتوريا ماتزال تبحث عن القمل في رأس ولدها الكبير وبالينا تسند رأسها على حجر الجلخ.

في اليوم التالي امحت هذه الصور تماماً. وأصبح مرأى شجيرات الجوازيرو أكثر قتامة، فبدت بذلك مختلفة عن بقية الاشجار. ماالسبب ياترى؟

اقترب من حظيرة الماعز ورأى التيس العجوز يثير صخباً شيطانياً وهو يلوي فمه، عندئذ تذكر اليوم السابق. سار نحو الجوازيرو. كان يمشي منحنياً، مقتفياً آثار الفرس البنية.

وعند الغداء، زجرته دونيا فيكتوريا.

ـ هذا العفريت يمشي وكأنه فاقد الوعي.

نهض وغادر المطبخ. ذهب ليتأمل الطماق، وواقية الساقين، والسترة الجلدية المعلقة على مشجب الصالة. ومن هناك اتجه الى الحظيرة، وفي هذه اللحظة راودته الفكرة. أحس برغبة في التفاهم مع أحد، لكنه كان يجهل مايود قوله. اختلطت الفرس الشقراء في مخيلته مع التيس، واتخذا هيئة واحدة تعرف فيها كذلك على ابيه وعلى نفسه.

قام بجولة حول الزريبة، متمهلاً ومتردداً، كما لوكان نسراً، مقلداً فابيانو في حركاته.

أحس للحظات بضرورة استشارة اخيه. لكن الأخر سيسخر منه دون شك، وربما أخبر دونيا فيكتوريا بالأمر. خشي السخرية. وخشي ان تشده دونيا فيكتوريا من اذنه اذا ما وشى أخوه به.

مما لاريب فيه أنه ليس فابيانو. ولكنه قد يكون كذلك. كان يشعر بالحاجة

لاثبات انه قادر على ان يكونه . وربما استطاع توضيح ذلك لو اتيح له تبادل الحديث مع أحد :

انطلق يسير خافضاً رأسه ، الى ان قاد أخوه وبالينا قطيع الماعز الى المنهل . فُتح السياج وانتشرت في الجو رائحة الماعز النتنة فيما الجلاجل ترن . واجتاز القطيع الفناء ، ماراً بحذاء الاحجار حيث يرمون الافاعي الميتة ، وبعد اجتياز الجوازيرو نزل الوهدة للوصول الى ضفة النهر .

اصطدمت الماعز ببعضها الآن وهي تمد وجوهها في الماء فيما قرونها تتصادم . أما بالينا فكانت منهمكة ، تعدو وتنبح .

كان قلب الابن الاصغر يكاد يقفز من مكانه وهو فوق السياج ينتظر وصول التيس الى المنهل . الحقيقة ان الأمر ينطوي على مخاطرة ، ولكنه وهو في مكانه المرتفع ، أحس بان قامته قد طالت ، وبانه قد يتحول الى فابيانو .

شعر بالتردد . فقد يقفز التيس ويوقعه .

نهض وانصرف مبتعدا ، وكان يتخلص من الرغبة التي تراوده عندما رأى سرباً من عصافير الدوري تطير فوق الجبل . رغب في امتلاك واحد منها لير بطه بخيط ويقدم له الطعام . ابتعدت جميع تلك العصافير وهي تزقزق فيما بقي الطفل حزيناً ، يراقب السماء المغطاة بغيوم بيضاء . بعض تلك الغيوم كان نعاجاً لكنها تفككت لتتحول الى حيوانات مختلفة . ثم اتحدت غيمتان كبيرتان ، كانت لاحداهما صورة الفرس الشقراء ، بينما مثلت الأخرى فابيانو .

فرك عينيه المبهورتين وعاد ثانية للاقتراب من ضفة النهر . ورأى كتلة القطيع المختلط ، وسمع ضربات القرون . اذا ماكان التيس قد انتهى من الشرب فستكون خيبة أمل حقيقية . تفحص القوائم النحيلة ، وفتائل الصوف القذرة المشعثة ، وبدا له في آخر الأمر انه لمح كائنات حية في السماء فاعتبر نفسه محمياً ، واقتنع ان هناك قوى غيبية تحميه . بل ورأى انه قادر على الطير ان في الهواء كعصفور دوري .

راح يقلد ثغاء الماعز ليلفت انتباه اخيه والكلبة . وغضب حين لم يحصل

على أية نتيجة. لكنه سيريها مأثرة تجعلهما يعودان الى البيت مذهولين.

في هذه اللحظة اقترب التيس ودس بوزه في الماء. فانزلق الطفل عن الضفة ليسقط راكبا على ظهر الحيوان.

غاص في الفرو المترهل، وانزلق وهو يحاول ان يثبت كعبيه دون جدوى. استراح ووجد نفسه فوق ردف البهيمة التي كانت تقفز بعنف، وربما كانت تبتعد عن المورد. مال الى أحد الجانبين، لكنه اهتز بشدة. وعاد الى الانتصاب، داخلاً في رقصة كرقص الدمى: ساقاه مفتوحتان وذراعاه طليقتان. قُذف ثانية الى الامام، وقفز قفزة قاتلة، مرق فوق رأس التيس، فاتسع شق أحد جانبي ثوبه وهوى على الرمل. بقي في مكانه بلا حراك، وطنين يدوي في اذنيه، مدركاً بابهام انه انما انتهى الى الهروب من المغامرة بلا كرامة.

رأى الغيوم تتفكك في السماء الزرقاء، وأحس بنفور تجاهها. تابع باهتمام طيران النسور، اذ ان فابيانو وهو بملابس راعي البقر الجلدية، يمضي متثاقلاً، بطيئاً ومتمايلاً كطيران النسور.

جلس ليجس عظامه الموجوعة. لقد ارتطم بشدة ظن معها ان عظامه قد انخلعت من اماكنها.

نظر بحنق الى أخيه والى الكلبة. كان عليهما ان يحذراه. ولم يلمح فيهما أي علامة من علامات التضامن. كان أخوه يضحك كمعتوه. وبالينا، بملامحها الصارمة، تستنكر كل ماحدث. أحس انه وحيد وذليل، وانه قد تعرض للسقوط وللرفس والضرب.

نهض واستند بحركة قانطة الى سياج المنهل، وجهه متجه الى المياه الموحلة وقلبه كسير. دس أصابعه النحيلة من شق القميص ليحك صدره الضامر. ضاع صخب النعاج في الوهدة، ونبحت الكلبة من بعيد. كيف هي الغيوم؟ ربما تحول بعضها الى أغنام وبعضها الآخر الى حيوانات غير معروفة.

تذكر فابيانو وحاول نسيانه. لاشك ان فابيانو ودونيا فيكتوريا سيعاقبانه على هذه الفكرة المشؤومة. رفع عينيه المرتعشتين. كان القمر قد ظهر وأخذ

حجمه يكبر، ترافقه نجمة تكاد تكون غير مرئية. ان عصافير الدوري تستريح في مثل هذا الوقت عند النهر، أو بين أوراق الذرة الجافة لو انه حصل على أحد هذه العصافير لأصبح سعيداً.

حنى رأسه لينظر ثانية الى الحفرة القاتمة التي يشرب منها القطيع. جداول نحيلة كانت تلمع وسط الرمل كأنها شرايين حيوانات مفتوحة. تذكر النعاج الدامية المذبوحة، التي تعلق ورأسها متدل الى أسفل على دعامة الفناء.

اخيراً قرر الرجوع الى البيت. تلاشت حالة الذل شيئاً فشيئاً واختفت. كان لابد له من الدخول الى البيت ليأكل وينام. ولابد له من ان ينمو ليصبح كبيراً مثل فابيانو، فيذبح النعاج بعد ضربها بالمطرقة الخشبية، ويمزق لحومها بالمدية. سيكبر ليتمدد في سرير من عوارض خشبية ويدخن سجائر ملفوفة بأوراق الذرة وينتعل جزمة من الجلد الخام.

صعد المنحدر واتجه ببطء الى البيت، ساقاه معوجتان كساقي راع حقيقي. عندما سيصبح رجلاً سيمشي هكذا، متمايلاً بتثاقل وجاعلاً حلقات مهمازيه ترن. سيقفز على صهوة مهر بري ويطير في الكاتنجا، تلفه سحابة من الغبار، كأنه اعصار. وعندما يصل البيت، سيترجل قافزاً ويمشي في الفناء، هكذا، متمايلاً، بطماق وسترة من جلد خام، وقبعة حزامها مثبت عند طرف الذقن. وسيصيب الذهول أخاه والكلبة وسيقدرانه حق قدره.

الفصل السادس

الابن الأكبر

حدث ذلك لأن دونيا فيكتوريا لم تشأ أن تتبادل الحديث لدقيقتين مع الابن الأكبر. فهو لم يكن قد سمع شيئاً عن الجحيم. ولقد أثارت طريقة دونيا في الكلام دهشته، فطلب من أمه ان توضح له. أشارت دونيا فيكتوريا بغموض، وهي ساهية، الى مكان بالغ السوء، وبما ان الابن طالب بوصف مفصل، فقد اكتفت بان هزت كتفيها.

مضى الصبي الى الصالة ليسأل أباه، فوجده جالساً على الأرض وساقاه مفتوحتان، وهو يبسط أمامه قطعة من النعل.

ـ ضع قدمك هنا.

انصاع الصغير للأمر، وأخذ فابيانو مقاس الصندل على الجلد: وضع علامة برأس السكين وراء الكعب وعلامة أخرى أمام ابهام القدم. وأتم في الحال رسم شكل الصندل ثم ضرب راحتيه ببعضهما:

ـ جاهز!

ابتعد الصبي قليلاً، لكنه بقي واقفاً في مكان قريب وجازف بالسؤ ال وهو متهيب. لم يحصل على جواب وعاد الى المطبخ ليشد فستان أمه:

ـ كيف ذلك؟

وحدثته دونيا فيكتوريا عن نيران وصفافيد. ووجهت اليه ضربة على رأسه.

خرج الصبي ساخطاً لهذا الظلم، فاجتاز فناء البيت ومضى للاختباء تحت شجيرات الكاتنجا الذابلة، عند ضفة البركة التي جفت من جديد.

رافقته الكلبة بالينا في هذه الساعة الصعبة. كانت ترقد الى جوار النار، غافية في الدفء، بانتظار عظمة ترمى اليها. قد لاتحصل عليها، لكنها تؤمن بالعظام التي تجعلها تغفو اغفاءة حلوة. كانت تتحرك بين الحين والحين موجهة حدقتي عينيها السوداوين نحو سيدة البيت، فيشع فيهما بريق الثقة. لابد من وجود عظمة مهيبة في القدر ولايمكن لأحد انتزاع هذا اليقين منها، كما لايمكن لأي قلق ان يساور رغباتها العادلة والمتواضعة. انها تتلقى بعض الركلات أحياناً بلا أي سبب. فالركلات متوقعة، لكنها لاتبدد صورة العظمة.

ان صوت دونيا فيكتوريا الصارم هفا اليوم والضربة التي وجهتها الى رأس الابن الأكبر قد انتزعا بالينا من غفوتها وجعلا الشكوك تراودها من ان الأمور لاتسير على مايرام. مضت لتنزوي في أحد الاركان، مابين الامتعة والسلال. وبعد لحظة رفعت انفها وحاولت ان تستكشف. وقد ألهمها الهواء الساخن الذي يهب من ناحية البركة الحل: انسلت الى جوار الجدار واجتازت المطبخ وبهو البيت ومضت لتلتقي بصديقها الذي كان يبكي بحرقة، في ظل شجيرات الكاتنجا. حاولت مواساته بالقفز من حوله محركة ذيلها. لم تكن سعيدة، انما لم يكن لديها مبرر للشعور بحزن كلبي شديد. ولأنها لاتقنط أبداً، فقد واصلت القفز لاهثة، لتجذب اهتمام صديقها. واقتنعت اخيراً انه لاجدوى من حركاتها.

جلس الصبي، وأسند رأس الكلبة الى ساقيه وراح يحكي لها قصة بهدوء. كان معجمه من الكلمات ضيقاً لايتعدى معجم الببغاء التي ماتت في زمن الجفاف، فكان لابد له من استخدام صرخات واشارات تجيب عليها بالينا بذيلها ولسانها، بحركات سهلة الفهم.

لقد تخلى الجميع عنه، والكلبة هي الكائن الحي الوحيد الذي كان يبدي تعاطفاً معه. ضغط عليها باصابعه النحيلة القذرة، فانكمشت الكلبة لتتمتع

بشكل أفضل بهذه المداعبة اللذيذة وأحست بالاحساس الذي يبعثه فيها الموقد المنطفىء.

واصل الصبي مداعبتها وقرّب وجه الكلبة من وجهه الموحل، ليمعن النظر في عمق عينيها الهادئتين.

كان قد غاص في الوحل مع أخيه وهما يصنعان حيوانات من الطين، ملوثين نفسيهما بالوحل حتى عينيهما. وقد ترك اللعب ليسأل دونيا فيكتوريا. انها محقة. أما المذنبة فهي دونيا تيرتا، التي عالجت بالصلوات ضربة كان فابيانو قد تلقاها في صدره في اليوم السابق، اذ انها مطت كلمة غريبة وهي تمص انبوب الغليون المثبت في فمها الخالي من الاسنان كأنه فم ساحرة. كان يتمنى لو تتحول هذه الكلمة الى شيء ملموس، لكن أمله خاب عندما أشارت أمه الى مكان سيء، مليء بالمشانق والمحارق. كان عليه أن يذعن للانتظار حتى تبدل أمه الجحيم الى شيء أكثر أنسا.

جميع الأماكن المعروفة كانت طيبة: زريبة الماعز والمواشي، بركة الوحل، الفناء والمورد: عالم تتواجد فيه كائنات حقيقية.. عائلة راعي المواشي وبهائم المزرعة. كما توجد كذلك سلسلة جبال زرقاء ونائية، ورابية تزورها الكلبة لتتصيد الأرانب البرية، ودروب شبه مطموسة المعالم في الغابة وضوار واجمات من الماكامبيرا لاسبيل الى ولوجها، وهناك يضج بشر كأنهم أحجار حية وتنبثق نباتات كأنها البشر. هذه العوالم تعيش في سلام، وتختفي الحدود فيها أحياناً ويتفاهم ساكنو كلا الجانبين تفاهماً تاماً ويمدون يد العون بعضهم لبعض. مما لاشك فيه ان القوى الشريرة موجودة في كل مكان، ولكن هذه القوى كانت تتلقى الهزيمة تلو الهزيمة على الدوام. وحين يروض فابيانو البهائم الجامحة، فلا بد ان هناك قوة حامية ثبتته على السرج وتدله على السبيل الأقل خطورة، وتخلصه من الاشواك وأغصان الشجر.

لم تكن العلاقات بين المخلوقات على مايرام دائماً. فالبشر كانوا يهيمون على وجوههم في القديم، منهكين وجائعين. كانت دونيا فيكتوريا تحمل الابن الاصغر مثبتاً على وركها، وتوازن صندوق القش على رأسها، وكان فابيانو يحمل

البندقية القديمة على كتفه، فيما باليتا تعرض أضلاعها من خلال الوبر الخفيف. أما هو، الطفل الأكبر، فقد سقط على الأرض التي كانت تلهب قدميه. كانت الدنيا قد أظلمت فجأة، واختفت التشيتشيكي والماندا كارو. ولم يكد يشعر يومها بالضربات التي وجهها اليه فابيانو بغمد المدية.

في ذلك الحين كان العالم شريراً. ولكن كل شيء صلح فيما بعد، بل يمكن القول الآن أن الأمور السيئة لم توجد مطلقاً. فهم يخبئون في خزانة المطبخ شرائح من اللحم المقدد وقطعاً من شحم الخنزير. ولم يعد العطش يعذبهم، وعند المساء، ما أن يرفع الحاجز، حتى تندفع المواشي الصغيرة الى المورد. ان بعض العظام والاحجار تتحول أحياناً الى بشر يجتازون الدغل، والرابية وسلسلة الجبال البعيدة والجبال ذات الرؤوس الشوكية.

ولأن الطفل لم يكن يتقن الكلام جيداً، فد راح يتلعثم بعبارات معقدة، مكرراً المقاطع الصوتية، ومقلداً ثغاء المواشي وصفير الريح وحفيف الاغصان التي تحتك ببعضها في الكاتنجا. لقد خطرت له الآن فكرة تعلم كلمة، وهو بحاجة لأن يتعلمها لانها وردت في حديث دونيا تيرتا. سيتعلمها لينقلها الى أخيه والى الكلبة. ستقف باليتا غير مبالية، أما أخوه فسيفاجأ وسيملأه الحسد.

- جحيم، جحيم.

لم يكن ليفكر بان كلمة جميلة كهذه يمكن ان تستخدم للدلالة على شيء قبيح. وقرر بحث القضية مع دونيا فيكتوريا. لو انها قالت له انها كانت في الجحيم، لكان اكتفى، لكن دونيا فيكتوريا متسلطة، انها شديدة التسلط والقدرة، وقد حاولت اقناعه بان وجهت اليه ضربة على رأسه، فبدا له ذلك بلا معنى. هو يرى ان الضرب أمر طبيعي حين يغضب الكبار، ويصل به التفكير الى ان هذا الغضب هو السبب الوحيد للضرب على الرأس ولشد الاذنين. وهذه القناعة تجعله مرتاباً ومتردداً في كل مرة يتوجب عليه فيها التوجه الى أبويه. لقد تشجع في استشارة دونيا فيكتوريا لأنه رأى لديها استعداداً. كان يوضح كل هذا للكلبة بسيل من الصرخات والايماءات.

كانت بالينا تكره المصارحات العنيفة : فمدت قوائمها، وأغمضت عينيها وتثاءبت. لقد كانت الركلات بالنسبة لها أمراً بغيضاً لابد منه، وليس لديها سوى وسيلة وحيدة للخلاص منها، ألا وهي الهرب. لكنها قد تكون غافلة في بعض الاحيان، فتأتيها ركلة على مؤخرتها فجأة، فلا تجد حينئذ ماتفعله سوى الانطلاق راكضة وهي تعوي والمضي للاختباء في الدغل شاعرة برغبة في عض قطع من عظام. ولكنها لاتلبث ان تستكين لعدم قدرتها على اشباع هذه الرغبة. ولم يكن انفعال صديقها وهياجه هكذا بالأمر المنطقي دون ريب. عادت تمد قوائمها وتثاءبت من جديد. انه وقت مناسب للنوم.

قبل الطفل فمها الرطب، ضاماً اياها بين ذراعيه. كانت مخيلته تحوم حول سلسلة الجبال الضاربة الى الزرقة وجبال الماكامبيرا. فابيانو يقول انه توجد في سلسلة الجبال كهوف نمور، وفي جبال الماكامبيرا توجد جحور أفاع.

دعك كفيه الصغيرين. منظفاً أظافره القذرة. وفكر بالاشكال الطينيه المهجورة الى جانب المخاضة الموحلة، لكن هذا جعله يتذكر الكلمة المنحوسة. ركز جهده لازاحة هذا الفضول المشؤوم عن روحه وتصور انه لم ينطق بذلك السؤال وانه لم يتلق بالتالي تلك الضربة على الرأس.

نهض واقفاً، ورأى من خلال نافذة المطبخ ضفيرة دونيا فيكتوريا الملفوفة على رأسها، وأثار فيه ذلك أفكاراً سيئة. مضى للجلوس تحت الشجرة الاخرى وتأمل سلسلة الجبال المغطاة بالغيوم. فسلسلة الجبال تلتحم بالسماء عند الغروب وتولد النجوم عليها. كيف يمكن ان تكون هناك نجوم على الأرض؟

ودنت الكلبة منه قافزة. تشممت كفيه ولحستهما، وبقيت الى جواره.

كيف يمكن أن توجد نجوم على الأرض؟

كان حزيناً. ربما ان ماقالته دونيا فيكتوريا هو الحقيقة. لابد ان الجحيم مليء بالافاعي والنمور، ولابد ان الأشخاص المجبرين على العيش هناك يتلقون الضرب على رؤوسهم، وتشد آذانهم، ويجلدون بالسياط.

ورغم استبداله المكان الا انه لم يستطع التخلص من حضور دونيا

فيكتوريا. كرر لنفسه القول ان شيئاً لم يحدث، وحاول التفكير بالنجوم التي تشتعل في الجبال. كانت النجوم مطفأة الآن.

أحس بالضعف والخذلان وهو يتأمل ذراعيه النحيلتين وأصابعه الرفيعة.

وراح يرسم على الأرض رسوماً مبهمة. لماذا قالت له دونيا فيكتوريا ذلك؟

احتضن الكلبة بعنف سبب لها ضيقاً. لم تكن تحب المعانقات التي تقيدها.. انها تفضل القفز والنبش في الأرض. وفيما هي تقطب وجهها وتبدي عدم رضاها عن أساليب صديقها، كانت تشم الروائح المنبعثة من القدر. ثمة عظمة كبيرة تعلو وتهبط في الحساء. ولم تكن الصورة المواسية لتفارقها.

واصل الطفل احتضانها. وتكورت بالينا كي لاتؤذيه وتحملت معاناة هذه المداعبة المفرطة. كانت رائحة الصبي طيبة، لكنها مختلطة بروائح أخرى آتية من المطبخ.. هنالك عظمة. عظمة شهية، مليئة بالنخاع ومكسوة ببعض اللحم.

الفصل السابع

شـــتاء

كانت الاسرة مجتمعة حول النار: فابيانو جالس على الجرن المقلوب ودونيا فيكتوريا مصالبة ساقيها، وجاعلة من فخذيها وسادة لولديها. والكلبة بالينا مستندة بمؤخرتها على الأرض، تراقب الجمرات وهي تتغلف بالرماد.

البرد قارس، والمزاريب تقطر هناك في الخارج، والريح تهز أغصان الكاتينغيرا بعنف، وصخب النهر يعلو أشبه بدوي رعد بعيد.

فرك فابيانو يديه راضياً، حرك الجمرات بطرف صندله، ففرقعت جذوات النار وسقط عنها الرماد. انتشرت هالة من النور حول الموقد الحجري، فأظهرت بشكل غائم ساقي راعي المواشي، وركبتي المرأة والطفلين الراقدين. كان الصغيران يتململان بين الفينة والفينة لان النار كانت ضعيفة لاتدفيء إلا بعض أجزاء جسديهما، بينما تبرد الاجزاء الأخرى وهي تتلقى الهواء الذي ينفذ من شروخ الجدران وشقوق النوافذ. ولذا لم يكن يمقدورهما النوم. فما ان يغلبهما النعاس حتى يشعرا بقشعريرة ويحسا بالحاجة الى التقلب للاقتراب من النار، فيسمعا حينئذ حديث والديهما. لم يكن ذلك حديثا بالمعنى الدقيق للكلمة، وانما عبارات مفككة، تتخللها كلمات مكرورة وغير منسجمة. وقد تخرج في بعض الاحيان صيحة حلقية تضفي على الخطاب المبهم مزيداً من الحماس. لم يكن أي منهما ليهتم بكلمات الأخر في الواقع: كانا يعرضان الصور التي ترد لمخيلتيهما،

والصور تتوالى وتختلط دون ان تكون هنالك من وسيلة للسيطرة عليها. ولأن موارد التعبير كانت جد فقيرة، فقد كانا يحاولان معالجة هذا النقص بالتحدث بصوت مرتفع.

أعاد فابيانو فرك راحتيه وبدأ بسرد قصة شديدة الاضطراب، ولأن شيئاً منه لم يكن مرئياً باستثناء صندله، فقد كانت ايماءاته تذهب أدراج الرياح. ركز الابن الأصغر اهتمامه. لو انه يتمكن من رؤية وجه أبيه، فقد يستطيع فهم شيء من الحكاية، أما هكذا في الظلام، فالمسألة صعبة جداً. نهض وجاء بحزمة حطب من المطبخ، فاستحسنت دونيا فيكتوريا هذا التصرف بهمهمة أطلقتها، لكن فابيانو استاء لمقاطعته وهو يتكلم، وبدا له ان تصرف الابن ينم عن قلة احترام، فمد يده لمعاقبته. سارع الصبي بالهرب ليتكور في حضن أمه التي وقفت صراحة الى جانبه:

ـ همم! ياللشجاعة!

لقد كان هذا الرجل هكذا دوما: قاسي القلب.

ـ هاوي شجار!

حركت جذوات النار بطرف المغرفة المصنوعة من قشرة جوز هند ووضعت في الموقد قطعاً من حطب الانجيكو الرطب، محاولة اشعالها. وساعدها فابيانو: توقف عن الثرثرة وانحنى على أربع وأخذ ينفخ النار، مكوراً خديه. ملأت المطبخ موجة دخان، أثارت السعال وجعلت الدمع يطفح من العيون. هزت دونيا فيكتوريا المروحة فوق النار، فمالبثت ألسنة اللهيب ان تطاولت من بين الحجارة.

توسعت دائرة الضوء وظهرت الآن صورهم مائلة الى الاحمرار وسط العتمة. فابيانو، المرئي من بطنه والى الاسفل، كان فاقداً شكل نصفه الأعلى، وكان يبدو ككتلة سوداء يقطعها ضوء مبهم. ومن كتلة السواد هذه عادت الثرثرة المعلوكة الى الخروج.

كان فابيانو رائق المزاج. فقد غطى السيل بالطمي منذ أيام العلامات الموضوعه عند الحواف ووصل الى الكاتينغيرا، التي لابد انها غرقت بالماء الان، اذ

لم يكن يظهر منها في الواقع سوى الأوراق، وكان الزبد يعلو، لاعقا الضفاف المخربة.

بعد زمن قصير سينتهي طغيان الماء. لكن فابيانو لايفكر بالمستقبل. فالسيل يتعاظم الآن ويقتل الحيوانات ويغمر الكهوف والوهاد. كل شيء يبدو على مايرام، وفابيانو يفرك يديه برضى، فلن تتهدده قريباً مخاطر الجفاف الذي قض مضاجع الاسرة لعدة شهور. كانت الكاتنجا قد أضحت صفراء، ثم تحولت بعد ذلك الى الاحمرار، وكانت المواشي قد أخذت بالنحول وبدأت كوابيس رؤى مرعبة تقض مضجعهم جميعاً. وفجأة شق السماء خط نحيل عند جانبي بركة النهر، ثم ظهرت خطوط أخرى أقرب، وبدأ الرعد يزمجر قريباً، وفي عتمة منتصف الليل تحركت غيوم بلون الدم، وانتزعت الرياح الهوجاء أشتال السوكوبيرا والامبوراتا[1]، ولمعت بروق كثيرة. اختبأت دونيا فيكتوريا مع ولديها في الحجرة، متدثرة باللحاف ومغطية اذنيها. ولكن العاصفة انتهت بهذه النار الجهنمية، وهطل المطر بعنف، ثم ظهرت بدايات السيل حاملة معها جذوعاً وحيوانات ميتة. لقد ارتفعت المياه كثيراً، ووصلت الى الوهدة، وكانت بها رغبة للوصول الى شجيرات الجوازيرو التي عند طرف البيت. كانت دونيا فيكتوريا خائفة. أيمكن للمياه ان تغمر الجوازيرو؟ اذا حدث هذا فسيفيض البيت بالماء ويتحتم على ساكنيه الصعود الى الرابية، ليعيشوا هناك في الأعلى لبعض الوقت كما الأرانب البرية.

كانت تتنهد وهي تؤجج النار بطرف المغرفة المصنوعة من قشرة جوز هند. عسى الله ألا يقدر حدوث كارثة كهذه.

ـ آه!

كان البيت متيناً.

ـ آه!

وكانت أعمدة الدعم راسخة تماماً في الأرض الصلبة. وهيكل البيت قادر

(١) من أصناف النباتات البقليه.

على مقاومة عسف الميلو. وحين يرجع النهر الى مجراه الطبيعي، سترجع الاسرة الى البيت. هذا اذا استطاعوا البقاء جميعهم على قيد الحياة في أجمة الجبل، كالأرانب البرية. ولكنهم سيرجعون عندما تنحسر المياه وسيستخرجون من المخاضة الطين اللازم لاصلاح البيت.

ـ آه!

حركت دونيا فيكتوريا المروحة بقوة كي لاتسمع صخب النهر الذي يدنو. أيكون في نيته التعاظم أكثر؟ كانت المروحة تئز، وكان صوت السيل كأنه النفخ.. نفخ ينتهي عند شجيرات الجوازيرو.

كان فابيانو يروى مآثره. بدأ الحديث بتواضع، ولكنه مالبث ان تحمس شيئاً فشيئاً وصار يرى الاحداث الآن بشيء من التفاؤل المفرط، واقتنع في أعماقه بانه استطاع في عدة مناسبات انجاز أعمال باهرة حقاً. لقد كان بحاجة لهذه القناعة. ففي زمن مضى ألمت به تلك المحنة: استفزه العسكري الأصفر في المهرجان، وضربه بالمتشيتي وأدخله السجن. لقد أمضى فابيانو عدة أسابيع يومها وهو كالمجنون، يتخيل أصنافاً متنوعة من الانتقام، وتطارده الرؤى عبر التلال الملتهبة. اذا ماحلّ الجفاف، فسيهجر زوجته وابنيه وسيدرز الأصفر بطعنات خنجره، ثم سيقتل القاضي بعد ذلك، والنائب العام، ومفوض الشرطة. لقد أمضى أياماً عديدة وهو على هذا الحال، مكتئب يفكر بالجفاف ويجتر مذلته. ولكن السماء بدأت تلمع بالبروق، وجاء السيل وهاهي المزاريب تقطر ماء والريح تنفذ من شقوق الجدران.

كان فابيانو يفرك كفيه سعيداً. وبما ان البرد شديد، فقد أدنى كفيه من النار. كان يروي قصة مشاجرة رهيبة، ويشعر، لدى نسيانه الضرب والسجن، انه قادر على اجتراح أعمال عظيمة.

ان النهر يعلو في الوهدة، ويقترب من الجوازيرو. انما ليس هنالك مايشير الى انه قد وصلهم. وفابيانو يقتبس باعتداد من أخبار أسلافه لير وي عن مشاجرة خرج منها منتصراً. كانت المشاجرة حلماً، لكن فابيانو كان مقتنعاً من انها حدثت.

كانت الأبقار تتدفأ بالاقتراب من جدران البيت الملاصقة للحظيرة فيما المطر يسوطها والجلاجل المعلقة باعناقها ترن. ستسمن من الكلأ الجديد وستنجب عجولا. سينمو العشب في السهب، وستزهو الأشجار بأغصان جديدة وستكاثر المواشي. جميعهم سيسمنون: فابيانو، وامرأته، وابناه، والكلبة بالينا. ولربما اشترت دونيا فيكتوريا سريراً مفرشه من الجلد. فالواقع ان سرير العوارض الذي يرتجون عليه عظامهم ليس مريحا.

كان فابيانو يومىء. ودونيا فيكتوريا تهز المروحة لتبقي اللهب مستعراً في الحطب المبلل. والطفلان، اللذان يشعران بالبرد في أحد جانبيهما وبالدفء في الجانب الآخر، لايستطيعان النوم ويصغيان الى حديث الأب. بدآ بمناقشة فقرة غامضة من الحكاية بصوت خافت. وبما انهما لم يتوصلا الى اتفاق، فقد قاطعا أبيهما ليمطراه بالاسئلة. غضب فابيانو لوقاحتهما وأراد معاقبتهما، ثم مالبث ان هدأ وعاد ليروي الفقرة الغامضة مستخدماً لذلك كلمات اخرى.

ضرب الابن الاصغر كفيه وتطلع الى يدي فابيانو اللتين تتحركان فوق اللهب، قائمتين ومائلتين للحمرة. كان ظاهرهما غارقاً في العتمة، أما باطنهما فمضاء وله لون الدم.. يبدو وكأن فابيانو قد سلخ بهما حيواناً. وكانت لحيته الشقراء المشعثة غير مرئية، أما عيناه الزرقاوان الجامدتان فهما مركزتان على الجمرات، وكان حديثه القاسي والأجش يقطع حبل الصمت، وهو جالس على الجرن. لايمكن لفابيانو ان يكون ساكناً وقبيحاً وجلفاً بهذه الحركات التي هي أشبه بحركات بهيمة كسلى عاجزة عن الوقوف على قدمين اثنتين.

ولم يكن الابن الأكبر راضياً. فهو غير قادر على رؤية ملامح الأب. وقد أغمض عينيه ليتمكن من فهمه بشكل أفضل، لكن شكوكاً راودته. اذ عدّل فابيانو في الحكاية مما ضاءل من احتمالات الفهم. شيء يثير السخط. تمطى وتثاءب. لو أن أباه أعاد سرد القصة مستخدماً الكلمات ذاتها لكان الأمر أفضل، فهو يستطيع بذلك مناقشة أخيه في محاولة لفهم معانيها. بل كان بامكانه القتال في سبيل تلك الكلمات، وبذا تصبح قناعته أشد رسوخاً. كان على فابيانو ان يعيد

الكلمات ذاتها. ولكنه لم يفعل: لقد ظهر اختلاف في الحكاية، وجعل من البطل مخلوقاً متناقضاً. تذكر الابن الاكبر لعبة قديمة، أهداه اياها دون توماس صاحب الطاحونة. فأغمض عينيه وأعاد فتحهما، كانتا مثقلتين بالنعاس. وكان الهواء الداخل من الشقوق يبعث البرد في احدى ساقيه، وأحد ذراعيه، وجانبه الايمن كله. فانقلب على جانبه الآخر ولم يعد يرى فابيانو. تلك اللعبة التي تهشمت، وبقي الطفل مغموماً لوقت طويل وهو يتذكر الاجزاء المهشمة. تذكر الحظائر التي بناها من حصوات صغيرة تحت أشجار الكاتينغيرا. لقد امتلأت البركة بالماء الآن، وأغرقت تلك الحظائر. كما أن الحفرة قد امتلأت أيضاً، ووصل الماء حتى جدار المطبخ واتصل هذا الوحل بمياه البركة وصار على دونيا فيكتوريا، حين تريد الذهاب الى الحجرة، الخروج من الباب الامامي والدوران في دورة كبيرة كي تصل الى ماوراء البيت. ان المزاريب تقطر، والابقار تهز اجراسها، والضفادع تغني. لقد كان صوت الأجراس أليفاً، لكن ترنم الضفادع ووقع المزاريب كان غريباً تماماً. كان كل شيء يتغير. لقد هطل المطر طوال النهار وطوال الليل. والاجمة التي كانت موطناً لكائنات غامضة، اغتصبتها هذه الضفادع الدخيلة، وكانت وتيرة ترتيلها ترتفع وتنخفض مالئة الجوار بهذا الايقاع الناعي. حاول عد الأصوات فأخطأ بالعد. لقد كانت كثيرة: لابد من وجود عدد لامتناه من الضفادع المختبئة في أجمة الرابية. ماالذي تفعله هذه الضفادع الآن؟ ولماذا تصدح بهذه التراتيل الصاخبة والكئيبة؟ لم يكن قد رأى ضفدعاً في حياته، وكان يخلط بينها وبين مخلوقات الجبال والغابات الغامضة. تكور على نفسه وحاول النوم، كان أحد جانبيه يتدفأ بالنار بينما الجانب الآخر محمي باليتي دونيا فيكتوريا.

كانت المروحة تهتز وتجعل الحطب الرطب يفرقع. وكان وجه فابيانو يضاء ثم مايلبث ان يظلم ثانية.

كانت بالينا تقبع ساكنة وصابرة، تنظر الى قطع الفحم وتنتظر نوم أفراد الاسرة. انها متضايقة من كل هذا اللغط الذي يثيره فابيانو. فكثيراً مايزعق كلما طارد احدى البهائم في السهب، وذلك طبيعي. ولكن لماذا كل هذا الصراخ هنا،

الى جانب النـار؟ ان فابيـانـو يرهق نفسـه دون أي سبب. وكان هذا يثير اشمئزاز بالينـا ويجعلهـا تغمض عينيها دون ان تستطيع النوم. يجب على دونيا فيكتوريا ان ترفع قطع الجمر والرماد، وتكنس الأرض، وتنام على سرير العوارض الخشبية مع فابيـانـو. أمـا الصغـير ان فسـير قـدان على حصيرة الصالة، تحت الرف. وحسنا يصنعـون بتركهـا تنـام بسلام. فهي تراقب كل يوم حركات الناس، محاولة ادراك أشياء غير مفهومة. لكنها الآن بحاجة للنوم، بحاجة للتحرر من القمل ومن هذا الانتظار الذي جعلوها تعتاده. انها تنتظر كنس الأرض، لتبحث عن مكان تتكور فيـه بين الاحجـار، لتغفـو في الـدفء، وهي تشم رائحـة النعـاج المبللة وتسمـع همسـات مبهمـة، وقـرع المزاريب، ونقيق الضفادع، وخرير النهر والسيل. وتنتظر مجيء حيوانات صغيرة لأصحاب لها لزيارتها.

الفصل الثامن

عيـــد

سيـذهب فابيـانو مع دونيا فيكتوريا والصغير ين الى المدينة لقضاء ليلة عيد الميلاد. كانت الساعة حوالي الثالثة بعد الظهر والحر شديد. وكانت الزوابع ترتفع سحباً من الغبار والأوراق الجافة فوق الاشجار المصفرة.

لقد أقفلوا الباب وأغلقوا كل شيء باحكام. خرجوا من الجهة الخلفية من البيت، وانحدروا مع الوهدة، وهاهم الآن يدوسون الأحجار البيضاء كجواميس في حوافرهـا داء. كان فابيـانـو مقيـداً تمامـاً في بدلته البيضاء التي فصلتها له دونيا تيرتـا، وكـان يعتمـر قبعة مخرمة، ويضع ياقة وربطة عنق، وينتعل حذاء من جلد العجل اللدن، ويحاول السير منتصب القامة، وهو مالم يكن يفعله عادة. أما دونيا فيكتوريا، المسكوبة في الفستان الملون، فلم تكن تتمكن من الحفاظ على توازنها الا بمشقـة فوق الحـذاء ذي الكعب الخشبي الهـائل. لقد كانت تصر على انتعال أحـذيـة كالتي تستخـدمها الفتيات القرويات، وهاهي تمضي متعثرة في الطريق. وكـان الصغـيران يرتـديان بناطيل وسترات لأول مرة، فهما يلبسان في البيت عادة قمصان كتانية أو انهما يبقيان عاريين ببساطة. لكن فابيانو اشترى عشر لفات من قماش أبيض، وطلب الى دونيا تيرتا ان تفصل الملابس له وللولدين. وجدت دونيا تيرتـا ان كميـة القـماش قليلة وغير كافية، لكن فابيانو تظاهر بالبلاهة، ليقينه بان

العجـوز تريـد مزيـداً من القـماش لتسـرق الاجـزاء الـزائـدة منه . وهكذا جاءت الملابس قصيرة وضيقة وكثيرة الوصلات .

حاول فابيـانـو ألا يلتفت الى هذه النقـائص . فسار منتصبا ، كرشه مندفع الى الامام وظهره مشدود ، وعيناه تتطلعان الى الجبال البعيدة . انه ينظر عادة الى الأرض عنـد موطيء قدميـه ليتجنب الاحجار والحفر والافاعي . ولذا لم يلبث هذا الـوضـع الجديد ، شديد التصلب ، من السير منتصباً ، ان انهكه . وفيما هو يدوس رمـال النهـر ، أيقن ان هذه الطـريقـة في المسير لن تمكنه من اجتياز الفراسخ الثلاثة التي تقطعـه عن المـدينـة ، فنزع حذاءه ، ووضع الجوربين في جيبه ، وخلع السترة وربطـة العنق واليـاقة ، وشخر حينئذ معرباً عن الراحة . وقررت دونيا فيكتوريا ان تحذو حذوه : فنـزعت حذاءهـا وجـوربيها ، وربطتهما بالمنديل . ووضع الصغير ان حذاءيهما تحت ابطيهما وأحسا بانهما على مايرام .

انضمت الكلبة باليـنا الى المجموعة ، بعد ان كانت تسير في المؤخرة . لو ان الكلبـة التحقت بهم قبـل ذلـك ورآهـا فابيانو ، فربما كان سيبقيها مربوطة هناك ، ولأمضت باليـنـا العيـد الى جانب الماعز التي تلوث البيت . أما وقد أصبحت ربطة العنق واليـاقـة مجمـدتـين في الجيب ، والسـترة معلقـة على الكتف والحذاء معلقاً بعصا ، فقد أحس راعي المواشي بأنه أكثر قرباً من الكلبة ، ورضي عن وجودها معهم .

استعـاد فابيـانـو وضعـه الطبيعي : المشية المترنحة ، والرأس المائل . وقلدته دونيـا فيكتـوريـا والصغـير ان وبـاليـنـا ، وساروا جميعهم كما يمشون عادة . وهكذا استطاعوا استغلال فترة مابعد الظهر كلها بيسر ، وعند الغروب وصلوا ضفة النهر ، عند بداية الشارع الرئيسي في المدينة .

حينئذ توقف فابيانو ، وجلس ليغسل قدميه القاسيتين ، محاولاً ان ينزع مافي شقـوق قدميـه من وحـل . ودون ان يجففهـا ، حاول انتعـال حذائه فوجد ان ذلك مستحيـلاً : لقـد تكـور الجوربان القطنيان وشكلا كتلة عند ظاهر القدمين ، وكان الحذاء الجلدي يقاوم دخول القدم فيه مثل عذراء . رفعت دونيا فيكتوريا تنورتها ،

وغسلت قدميها وهي جالسة على الأرض. وخاض الصبيان في الجدول، ورطبا أقدامهما، ثم خرجا من الماء لينتعلا حذاءيهما وبقيا يراقبان حركات أبيهما. كانت دونيا فيكتوريا قد انتهت ونهضت عن الأرض، لكن فابيانو كان مايزال ينفخ ويتذمر. لقد سيطر على عناد احدى فردتي هذا الحذاء اللعين، ولكن الفردة الأخرى تصر على عدم الانصياع. فكان يقوم بجهود لاطائل منها وهو يمسك باذني الحذاء بين أصابعه. تفوهت دونيا فيكتوريا ببعض التعليقات حول هذه العملية، مما أثار حفيظة زوجها. لم تكن هناك من وسيلة لدس الكعب اللعين في الجزمة. وبشدة أكثر قوة، تمزقت الأذن الخلفية فأخذ راعي المواشي يشد ساق الجزمة حينئذ بهمة. وحين عجز عن انتعالها، نهض، وحسم أمره بدخول الشارع هكذا كما هو. . بساق أطول من الاخرى. وبحنق مفرط، يخالطه بعض الأمل. ضرب الأرض بقدمه ضربة قوية، فانضغط اللحم وطقطت العظام حين تمزق الجورب المبلل وانحشرت القدم المجروحة بين جنبات الجلد. أطلق فابيانو تنهيدة سعادة وألم عظيمة. وحاول في الحال وضع الياقة القاسية حول عنقه، لكن أصابعه المرتعشة لم تتمكن من اداء المهمة. فساعدته دونيا فيكتوريا: أولجت الزر في العروة وعقدت ربطة العنق. فتركت اليدان الملوثتان بقعا قاتمة على الياقة.

زمجر فابيانو:

ـ هذا حسن.

اجتازوا جذع الشجرة المستخدم كجسر فوق الساقية ووصلوا الى الشارع. كانت دونيا فيكتوريا تمشي متعثرة بسبب كعب حذائها العالي، وكانت تحمل المظلة وقبضتها الى أسفل. من المستحيل القول لماذا هي تحمل المظلة بهذا الشكل، وهي نفسها لاتعرف تفسيراً لذلك، ولكنها كانت ترى دوماً الفلاحات الاخريات يحملنها هكذا، فجارت العادة.

كان فابيانو يسير متصلباً.

وكان الصغيران يراقبان مصابيح الانارة ويتخيلان أموراً خارقة. كان شعورهما بالرهبة أكبر من فضولهما، فكانا يطآن الأرض بتأن، وكأنهما يخشيان ان

يلفتا انتباه الناس. لقد كانا يفترضان وجود عوالم شديدة الاختلاف عن المزرعة: عوالم رائعة في سلسلة الجبال الزرقاء. ومع ذلك، فان هذا الذي يريانه هو شيء شديد الغرابة. كيف يمكن وجود كل هذه البيوت وكل هؤلاء الناس؟ لابد ان أحداً سيعنفهما. ويمكن لهؤلاء الناس ان يكونوا نزقين ولا يرغبون في رؤيتهم يمشون في الشارع. انهما معتادان على الضرب على الرأس وشدّ الأذنين. ربما كان هؤلاء الناس لايتصرفون مثل دونيا فيكتوريا، لكن الصغيرين كانا ينزويان ويستندان الى الجدران، نصف مبهورين، ومسامعهما تضج بصخب غريب.

وصلوا الى الكنيسة ودخلوا اليها. بقيت بالينا في الخارج، تتمشى على الرصيف، وتراقب الشوارع بعينين قلقتين. فهي ترى انه لابد من أن يكون كل شيء مظلما، لان الوقت ليل، وانه لابد لهؤلاء الناس الذين يسيرون من أن يخلدوا الى النوم. رفعت وجهها وشمت رائحة أثارت فيها الرغبة في العطاس. ان الصراخ هنا كثير، والانوار مفرطة، ولكن مايقلقهاهو هذه الرائحة الدخانية.

الصغيران ذهلا كذلك. ففي عالم يتعاظم بشكل مفاجيء، رآيا فابيانو ودونيا فيكتوريا شديدي الضآلة، وصغيرين جداً أمام تماثيل الكنيسة. ماكانا يعرفان المذابح، ولكنهما افترضا ان هذه الاشياء لابد ان تكون ثمينة. وقد ادهشتهما الانوار والتراتيل. فالنور الوحيد الذي يعرفانه في المزرعة هوضوء النار الموقدة بين أحجار موقد الطبخ ونور قنديل الكير وسين المعلق بقطعة خشب، ومن الغناء يعرفان تسبيح دونيا فيكتوريا وصرخات فابيانو التي يطلقها لحث العجول، وهي أصوات رتيبة لاجتذاب المواشي وليست كلمات.

كان فابيانو صامتاً، يتأمل الصور والشموع المضاءة، محشوراً في ملابسه الجديدة، ومشدود الرقبة يراوده احساس بانه يطأ على جمر. وكان الازدحام يضغطه ويضايقه أكثر من ضيق الملابس. صحيح انه حين يرتدي ملابس رعاة البقر المصنوعة من الجلد الخام، يكون محشوراً فيها وكأنه حيوان مدرع، لكنه يقفز فوق صهوة البهيمة ويطير في الكاتنجا. أما الآن، فهو عاجز عن الالتفات، لأن

هنـاك أيـدياً وأذرعاً متشابكة مع جسده. تذكر الضرب الذي ناله والحبس في تلك الليلة، ورأى ان احســاسـه الـذي يشعـر به الآن لايختلف كثيراً عن احسـاسـه بالاعتقـال. كان يشعـر وكأن أيدي وأذرع هذا الحشد ستمسك به وتهرسه في أحد الاركـان. نظـر الى الـوجـوه المحيطـة به. وفعـلا، لم يكن يبـدو على الكـائنـات المجتمعة هناك انها تراه، لكن فابيانو كان يشعر بانه محاط بأعداء ويخشى ان يتورط في جدال وتنتهي الليلة نهايـة سيئـة. كان يلهث ويحـاول دون طائل ان يكتم لهاثه بالقبعة، وكان يجد صعوبة في الحركة ويحس بانه مقيد. وتمكن من شق طريقه ببطء بين النـاس ليصـل الى حوض المـاء المقدس، حيث توقف خشية ان تغيب زوجته وولـداه عن ناظـريـه. وقف على رؤوس أصـابعـه، لكن هذه الحـركـة جعلتـه يطلق زمجـرة ألم، فالكعبـان المشققـان آلمـاه. لمح ضفـيرة دونيـا فيكتـوريـا المعقـوصة على رأسها تلوح من وراء أحـد الأعمـدة. ربما كان الصغير ان معها. ان الكنيسة تعج بمزيد من النـاس في كل لحظـة. وقد كان على فابيانو، كي يلمح رأس زوجته، ان يشد نفسه الى أعلى ويحني رأسه. فكانت الياقة القاسية تجرح جلد رقبته. لكن الجزمة والياقـة القـاسية كانتا ضروريتين، اذ لايمكن للمرء المجيء الى صلاة الليل وهو ينتعـل صنـدلا ويرتدي القميص القطني المفتوح الذي يكشف عن صدره الكثيف الشعـر. لان في ذلـك قلة احـترام. وبما انه رجل متدين، يدخل الكنيسة مرة كل سنـة، ويـذكـر انـه مذ وعى على الدنيا وهو يذهب الى الكنيسة بملابس العيد: بنطـال وسـترة جيدي الكي، وجزمة من المطاط، وقبعة من اللبد، وياقة مع ربطة عنق. فلن يخاطر بالاساءة الى هذا التقليد حتى لو تحمل الألم في سبيل ترسيخه. كان يرى انـه يقـوم بواجب وعليـه ان يبقى منتصباً. لكنه لم يكن بقادر على تنفيذ هذا الأمر بحذافيره. اذ كان ينحني الى الأمام رغما عنه ـ وهو وضعه الطبيعي ـ، وكانت ذراعاه تهتزان وكأنهما مخلوعتين.

حين يقـارن فابيـانـو نفسـه بأهـل المدينة، يشعر انه أدنى منهم. ولهذا كان يشك بان الآخرين يسخرون منه، فيكسو وجهه بملامح غير ودية ليحول دون أي نوع من الحـوار. فهذا الصنف من الناس لايتحـدث الا للحصـول على شيء:

التجار يسرقون في المقاس وفي السعر وفي جمع الحساب، والسيد ذو الريشة والحبر يقوم بحسابات غير مفهومة، والمرة الاخيرة التي التقاه فيها، أغرقه في خضم أرقام مختلطة، فغادر فابيانو مكتب الأبيض ساخطا. وقد حمي رأسه ليقينه انه وقع ضحية احتيال. جميعهم يريدون الحاق الضرر به، فالصيرفة، والتجار، وصاحب المزرعة يسلبونه مايستطيعون أما الذين لاتجارة لديهم فيسخرون منه لرؤيته يتعثر في شوارع المدينة. لهذا فان فابيانو يبتعد عن مخالطة هؤلاء الناس. كان يعلم ان البدلة الجديدة التي فصلتها وخاطتها دونيا تيرتا، والياقة، وربطة العنق، والجزمة وقبعة اللبد تحوله الى كائن مضحك، لكنه لم يكن يرغب ولو في مجرد التفكير بهذا الأمر.

ـ بطالون، لصوص، ثرثارون، كفرة.

كان مقتنعاً بان جميع أهل المدينة أشرار. عض شفتيه. لايمكنه النطق بشيء كهذا. فلخطيئة أصغر من هذا الكلام احتمل الضرب ثم النوم بعد ذلك في زنزانة. آه، الشرطي الأصفر! . . . هز رأسه ليتخلص من الذكرى الكريهة وبحث عن وجه أليف بين الحشود. اذا ماالتقى بأحد معارفه فسيناديه ليعانقه مبتسماً في وسط الشارع، وليتحدث واياه عن المواشي. أحس باختلاجة وحاول رؤية عقصة شعر دونيا فيكتوريا. عليه ان يبقى متيقظاً وألا يبتعد عن زوجته وولديه. اتجه نحوهم ووصل اليهم في اللحظة التي بدأت فيها هذه الحشود بمغادرة الكنيسة والخروج الى الشارع.

نزلوا السلالم يدفعهم الازدحام. ولدى احساسه بالاساءة، تذكر فابيانو العسكري الاصفر ثانية. وعند مروره قريباً من شجرة الجاتوبا التي في الساحة التفت نحوها. لقد استفزه ذلك النذل بان داس على قدمه دون أي سبب. وقد حاول فابيانو الحؤول دون الشجار بأكثر الأساليب ليناً، لكن اصرار الاخر أفقده الصبر وجعله يرد عليه رد رجل لرجل. والنتيجة: جلد على الظهر وليلة في السجن.

دعا زوجته وولديه للصعود الى ارجوحة الجياد، أجلسهم على الاحصنة الخشبية

وتسلى قليلاً برؤيتهم يدورون. ثم قادهم بعد ذلك مباشرة الى أكشاك المقامرة. هرش رأسه، وأخرج المنديل من جيبه، ثم حل عقده ليحصي مامعه من نقود، وليجرب المغامرة بها في لعبة الزهر. اذا ماحالفه الحظ فسيتمكن من تحقيق حلم دونيا فيكتوريا الذهبي ويشتري لها سرير الجلد المنشود. ذهب ليشرب الخمر في حانة قريبة وعاد يشخر مترددا وطالبا بعينيه رأي زوجته. أشارت دونيا فيكتوريا بحركة أبدت بها عدم موافقتها، فانسحب فابيانو، متذكراً يوم لعب مع العسكري الأصفر في محل دون اغناسيو. كان متأكداً من انه وقع يومها ضحية احتيال. عاد للاقتراب من المظلة، وشرب مزيداً من الخمر. وشيئاً فشيئاً راح ينسى خجله.

ـ العيد هو العيد.

شرب ثانية واتخذ وضعاً متصلباً ناظراً الى جميع من هم حوله بتحد. كان على استعداد لاقتراف أية حماقة. لو انه يلتقي العسكري الاصفر فسيلقنه ماهو جدير به. راح يمشي بين الاكشاك بحركات استفزازية، عير عابيء بجراح قدميه. ماكان يريده هو اغراق نفسه، وتلقين هذا النذل درساً. ويبدو انه لم يعد يهتم الآن بزوجته وولديه الذين يتبعونه.

جار:

ـ فليخرج لي رجل، ان كان للرجال من وجود.

ولم ينتبه أحد للتحدي وسط الضجة التي تملأ الساحة. وتوارى فابيانو وراء الاكشاك، حيث باعة الحلوى. كان مستعداً لتوريط نفسه، انما لايزال لديه شيء من الحذر. لكنه يستطيع ان يغضب هناك حيث يتوارى ويوجه التهديدات والشتائم الى أعداء لامرئيين. لقد كان يخاطر ويحاذر في الوقت ذاته، مدفوعاً بقوى متناقضة. فهو يعرف ان انفجاره هذا خطير، ويخشى ان يظهر العسكري الأصفر فجأة أمامه. العسكري الأصفر، الذي إن افتقد النقود، فانه يسعى لكسبها بالخداع مع الدرك الاخرين. من الأفضل الابتعاد عنه. ولكن ذكرى ذي الزي العسكري كانت تتحول أحياناً الى شيء رهيب. فيطلق فابيانو سلسلة من الشتائم متحدياً وقد هيجته الخمرة.

ـ أين هو هذا الشجاع؟ من يتجرأ على القول اني سيء؟ فليخرج لي ولو شخص واحد يظن نفسه رجلاً!

كان يطلق تحدياته في دمدمة غير مفهومة، وبالخوف الغامض من ان يسمعه أحد. لكن أحداً لم يظهر له. فشخر فابيانو عالياً، وصرخ بانهم جميعاً جبناء ومخصيون، أجل ياسيدي. وبعد صراخ كثير، افترض وجود رجال مختبئين في مكان قريب، خائفين منه. فشتمهم:

ـ ياخرطوم الـ . . .

توقف وقد بدت عليه ملامح الاحتضار. كان يتعرق عرقاً بارداً وفمه ممتلىء باللعاب، دون ان يعثر على الكلمة المطلوبة. كان لسانه ينتفخ، ياله من لعين. وبصق فابيانو، غارساً عينيه اللامعتين بزوجته وابنيه. تراجع بضع خطوات وأخذ يتقيأ. ثم اقترب مترنحاً من الأضواء، وجلس على عتبة أحد المتاجر. كان منهمكاً، جسده مترهل وخامد الهمة. خرطوم ماذا؟ راح يكرر السؤال دون ان يدري عم يبحث. تطلع الى وجه زوجته عن قرب، دون ان يتمكن من رؤية عقصة شعرها. أيمكن لدونيا فيكتوريا ان تنتبه الى ماهو عليه من تعثر واضطراب؟ كانت هناك جماعة من الفلاحين يتبادلون الاحاديث فيما بينهم، وأحس فابيانو بالكراهية تجاههم. لو لم يكن على هذه الحالة من الاضطراب، ولولا انه يتجشأ ويتعرق، لتشاجر معهم. واختلط السؤال الذي كان يعذب روحه المشوشة بفكرة انه ليس لهؤلاء الاشخاص الحق بالجلوس على الرصيف. انه يريدهم ان يتركوه برفقة زوجته والولدين والكلبة فقط. خرطوم ماذا؟ وصفق وهو يطلق صرخة جافة:

ـ خرطوم كلاب!

فرح لاكتشافه هذا التعبير الخمري. خرطوم الكلاب. من المؤكد أن الفلاحين من أمثاله ليسوا أكثر من كلاب. بحث بيديه عن زوجته وابنيه وتأكد من وجودهم معه، الى جانبه. لوى عنقه انقباض شديد في وجهه، وامتلأ فمه باللعاب ثانية. فبصق، وتنفس بقوة وقد أصبح أكثر هدوءاً، ومرر أصابعه من

خلال خيط لعاب كان يتدلى من فمه. لقد كان دائخاً حقاً، وفي اذنيه أزيز فظيع، ويقسم انه قد جهر بشجاعته دون أن يعرضه ذلك لأية مخاطر. وكان يرى ان ثمة خطأ في الأمر. انه يشعر الآن بالثقل وبالنعاس. فأثناء اطلاقه التبجحات ودوران رأسه بالخمر، كان قادراً على تناسي ألم قدميه. أما في البرد الآن، فقد بدأت الجزمة تسبب له العذاب. خلعها من قدميه، ونزع جوربيه، ثم الياقة وربطة العنق والسترة، ولف ذلك كله صانعاً منه وسادة واستلقى على الرصيف، ملقياً قبعة اللبد على عينيه، وبدأ يغفو، شاعراً أن معدته مضطربة.

وجدت دونيا فيكتوريا نفسها في مشكلة جدية: انها تتحرق لقضاء حاجتها ولاتعرف كيف تفعل ذلك. بامكانها التواري عند طرف الساحة، وراء الاكشاك، حيث بائعات الحلوى وأطباقهن. اندفعت وهي شبه مصممة، ولكنها عادت تحاور نفسها. اتترك الطفلين وحدهما مع زوجها وهو على هذا الحال؟ أمعنت النظر في جميع الاتجاهات بيأس حقيقي، لأن حاجتها التي تود قضاءها كانت كبيرة. انسلت بحذر، ووصلت الى ركن فيه مجموعة من النساء الجالسات القرفصاء. وبينما هي تتأمل واجهات البيوت والمصابيح الورقية الملونة، بللت الأرض وأقدام الفلاحات الاخريات. انسابت الى حيث أفراد اسرتها، وأخرجت الغليون الفخاري من الجراب وأشعلته بعد ان فركت التبغ، ونفثت أنفاساً متتالية من الدخان. وراحت تراقب، وقد تخلصت من حاجتها، الجموع التي تتجول في الساحة وكأنها النمل. وطاولة اليانصيب، والخطوط المضيئة التي تخلفها المفرقعات النارية. حقاً، ان الحياة ليست سيئة. وسرت في جسدها قشعريرة حين فكرت بالجفاف، وبالرحلة الرهيبة التي قاموا بها في دروب ملتهبة مليئة بالعظام والأغصان الجافة. لقد كان صخب الجموع مفرحاً، ولم تتوقف خنة الأرغن المحمول على عربة. ولتصبح الحياة طبيعية الى الابد، لم يكن ينقصها إلا سرير كسرير دون توماس صاحب الطاحونة. تنهدت حين فكرت بسرير العوارض الخشبية الذي تنام عليه. وبقيت هناك، جالسة على الأرض، تمص الغليون وقد فتحت عينيها واذنيها جيداً كي لاتفقد شيئاً من العيد.

كان الطفلان يتهامسان، ويتبادلان الآراء، كئيبين لاختفاء الكلبة. شدا أمهما من كمها. ماالذي حدث لبالينا؟ رفعت دونيا فيكتوريا ذراعها بوهن وأومأت بطرف الغليون ايماءة مبهمة الى ناحيتين. وألحف الصغيران. أين يمكن للكلبة أن تكون؟ ما كانا يهتمان بالكنيسة، ولا بالمصابيح الورقية، ولا بالاسواق، ولابطاولات اللعب ولا بالألعاب النارية، وانما كان كل اهتمامهما منصباً على مراقبة أرجل العابرين. لابد أن الكلبة المسكينة تتحمل الآن الركلات، وهي تائهة في هذه الأنحاء.

وفجأة ظهرت بالينا. قفزت الى الشارع ومرت من خلال تنانير النساء، وعبرت فوق فابيانو لتصل الى حيث كانا صديقاها، معربة بلسانها وذيلها عن سعادتها الغامرة. أمسكها الابن الأكبر. انها الآن مطمئنة. حاولا ان يبينا لها انهما قد خافا عليها خوفاً شديداً، ولكن بالينا لم تول هذا الشرح كبير اهتمام. كانت ترى انهم يضيعون الوقت في مكان غريب ومليء بمنتنين مجهولين. وأرادت أن تنبح لتعبر عن رفضها لكل هذا، ولكنها أدركت انها لن تقنع أحداً، ففضلت الانطواء على نفسها خافضة ذيلها، وصابرة على المعاناة في سبيل نزوات أسيادها.

وكان رأي الصغيرين مشابهاً لرأي الكلبة. انهما يتأملان الآن المتاجر، والأكشاك، وطاولة اليانصيب، دون ان يتوقفا عن التعليق وهما مذهولان. وقد فهما في نهاية الأمر ان في الدنيا كثيراً من الناس. وانشغلا باكتشاف عدد عظيم من الاشياء. كانا يتبادلان الانطباعات حول كل هذه الاشياء المذهلة. وقد راودت الابن الاصغر بعض الشكوك التي عبر عنها لأخيه. أيمكن ان يكون الناس هم الذين صنعوا كل هذه الأشياء؟ وأبدى الابن الأكبر ارتيابه، فتأمل المتاجر والاكشاك المضاءة، والفتيات ذوات الملابس الانيقة. وهز كتفيه. ربما كان كل هذا من صنع الناس. ولكن مشكلة جديدة حلت على روحه وأسرّ بها في اذن أخيه. ربما كان لكل هذه الأشياء أسماء. واستجوبه الابن الأصغر بعينيه. أجل، لابد من اسم لكل تحفة يعرضونها على مذابح الكنيسة أو في واجهات المتاجر. وراحا يناقشان هذه المسألة العويصة. كيف يمكن للبشر ان يحفظوا كل هذه

الكلمات؟ مستحيل، لايمكن لأحد ان يحفظ في ذهنه هذا القدر من المعارف. وجهلهما بالاسماء، بقيت تلك الاشياء بعيدة عنهما وغامضة. انها غير مصنوعة للبشر. وهؤلاء الاشخاص الذين يدخلون بين الاشياء ماهم إلا متهورين. كانا يتحدثان بتقدير ورهبة، وبصوت خافت جداً كي لاتنطلق القوى الخفية التي قد تكون محبوسة في تلك الاشياء.

كانت بالينا التي غفت، تهز رأسها أو تقطب أنفها بين الحين والآخر. فالمدينة تعبق بروائح عرق متنوعة تشوش حاسة الشم لديها.

ومن خلال الاكشاك، كانت دونيا فيكتوريا تحتفظ في ذهنها برؤيا سرير دون توماس صاحب الطاحون.. سرير حقيقي.

كان فابيانو يشخر وبطنه الى أعلى، بينما حافة القبعة تغطي عينيه، ورأسه مستقر على الجزمة. كان يحلم وكأنه يحتضر، وكانت بالينا تشم منه رائحة غير مألوفة. ارتعش فابيانو ولهث، فقد ظهر له في المنام عدد كبير من العساكر الصفر، راحوا يدوسون على قدمه بأحذية هائلة ويتوعدونه بعقاب رهيب.

الفصل التاسع

بالينـــا

الكلبـة بالينـا في الـرمق الاخير . لقد نحلت وظهر الجلد منتوفاً من الفرو في أنحاء متفرقة من جسدها . كانت أضلاعها بارزة تحت الجلد الوردي ، حيث توجد بقع قاتمة ، متقيحة ودامية ، يغطيها الذباب . وكانت تجد صعوبة في الشرب والأكل بسبب قروح فمها وتورم شفتيها .

ظن فابيـانـو انهـا مصـابـة بالكَلَب ، فعلق في عنقها سبحة من حبات الذرة البر ية المحروقة . لكن بالينا التي واصلت المضي من سيء الى أسوأ ، كانت تحك جلدهـا بدعـائم الـزريبـة أو تدخل يائسة الى أجمة الرابية لتهش الذباب ، نافضة اذنيها المترهلتين وهازة ذيلها المنتوف والقصير فوق مؤخرتها العريضة والمليئة ببقع دائرية كالجلاجل .

حينئذ قرر فابيانو قتلها . بحث عن بندقيته القديمة ، فنظفها وزيتها بدقة ، وحاول حشوها جيداً كي لاتتألم الكلبة كثيراً .

أغلقت دونيـا فيكتـوريـا الغـرفـة ، وحجبت بجسـدها الصبيين الخائفين ، اللذين كانا يشعران ان كارثة ستقع ، ولايتوقفان عن تكرار السؤال ذاته :

ـ هل ستفعلان شيئاً ببالينا؟

لقد رأيا الخردق والبارود ، وكانت تحركات فابيانو تثير فيهما الكآبة ، وتجعلهما

يرتابان بان الكلبة معرضة للخطر.

كانت الكلبة بمثابة فرد من أفراد الاسرة: فثلاثتهم يلعبون معاً، بل يمكن القـول انهـا لاتختلف في شيء عن الصبيـين، فهم يتمرغون معاً في رمال النهر وفي الوحل النتن الذي يتعاظم مهدداً بغمر زريبة الماعز.

أرادا الوصول الى المقبض الخشبي وفتح الباب، لكن دونيا فيكتوريا ألقت بهما ثانية الى سرير العوارض وجاهدت لاغلاق اذنيهما: حشرت رأس الكبير بين فخذيها، وضغطت بكفيها على اذني الصغير. ولأن الصبيين قاوما، فقد شدتهما، محاولة السيطرة عليهما وهي تدمدم بانفعال.

انهـا تشعـر بالأسى في قلبهـا أيضاً. لكنها كانت مذعنة للقدر: فقرار فابيانو ضروري وعادل بالطبع. يالبالينا البائسة!

أصـاخت السمـع، وسمعت حفيف البـارود المنـزلق في سبطـانـة السلاح وضربات سيخ الدك الصماء. فتنهدت، يالبالينا البائسة!

بدأ الصغـيران بالصـراخ والـرفس. وبـما أن دونيـا فيكتـوريـا قد أرخت عضلاتها قليلاً، فقد فر أكبرهما، وأطلقت لعنة في اثره:

ـ شيطان رجيم!

استشـاطت غضبـاً وهي تصـارع لعقـل الابن المتمـرد والسيطـرة عليه من جديـد. ستضـرب قليـل الحيـاء هذا. ضربتـه على رأسـه المغطى بالـوسـادة الحمـراء وبتنورتها المزينة بالورود.

وشيئـاً فشيئـاً، أخـذ غضبهـا يخمـد. ولتخـدع الصغـيرين، نسبت دونيا فيكتـوريـا الى الكلبـة أمـراً كريهـاً وتظاهرت بالاشمئزاز منها، واستخدمت أسماء قبيحـة في نعتهـا. انهـا حيـوان قذر وأخـرق. وليس مناسباً ان يتركوا كلبا مسعوراً طليقاً في البيت. لكنها أحست أنها تبالغ بالقسوة وخيل اليها انه لايمكن لبالينا أن تكـون مسعـورة. وأسفت لأن زوجهـا لم ينتظـر يوماً آخر ليروا ماإذا كان لامفر من القتل فعلاً.

في هذه الأثنـاء، كان فابيـانـو في الفنـاء، يفـرقـع باصـابعه. فشدت دونيا

فيكتوريا عنقها الى أسفل محاولة تغطية اذنيها بكتفيها. وحين لم تتمكن من ذلك، رفعت ذراعيها، ودون ان تفلت ابنيها، تمكنت من اخفاء رأسها قليلا.

ذرع فابيانو الفناء، مستحثاً كلباً لامرئياً على مواش لامرئية:

ـ صدى! صدى!

ودخل في الحال الى الصالة. اجتاز الممر ووصل الى نافذة المطبخ الواطئة. تفحص الموجودات، ورأى بالينا وهي تحك جلدها بالدعامة، فرفع بندقيته القديمة. ولاحظت الكلبة حركة صاحبها بارتياب، فانكمشت على نفسها وراحت تبتعد، الى ان أصبحت في الجانب الاخر من الدعامة، مقعية ومقطبة، لايكاد يبدو منها سوى حدقتي عينيها السوداوين. قفز فابيانو الى الجانب الأخر من النافذة، وقد أثارت مناورتها هذه حفيظته، وعند وصوله الى سياج الزريبة، حيث الدعامة التي تشكل الزاوية، رفع السلاح ثانية. وبما ان الحيوان الذي أمامه لم يكن يمثل هدفاً جيداً، فقد تقدم بضع خطوات اخرى. ثم ضبط تسديده وضغط على الزناد. أصاب العيار الناري مؤخرة بالينا وفتت احدى قوائمها، فراحت تعوي بيأس.

حين سمعت دونيا فيكتوريا دوي العيار الناري، صلت للسيدة العذراء، وانهار الصغير ان على السرير وهما يبكيان بحرقة. وأحس فابيانو ان روحه تهوي الى قدميه.

هربت بالينا مسرعة، متدحرجة في الوحل، ودخلت الى المزرعة من الجهة اليسرى، فضمخت بدمها ما في طريقها من نباتات، ونفذت الى البيت من خلال فجوة في السياج، راكضة على ثلاث قوائم، ثم اتجهت من جديد نحو الفناء. ولخوفها من الالتقاء بفابيانو، ابتعدت نحو زريبة الماعز. وهناك توقفت لهنيهة، مشوشة، لتخرج بعدها قافزة وبلا اتجاه معين.

وأمام العربة انفصلت قائمتها الخلفية المصابة. ولانها فقدت كثيراً من الدم، مشت مثل البشر على قائمتين، ساحبة وراءها بمشقة الجزء الخلفي من جسدها. أرادت الانحراف والاختباء تحت العربة، لكنها خافت من العجلات.

عندئذ اتجهت نحو الجوازيرو، فتحت أحد الجذور توجد حفرة عميقة

ومريحة كانت تحب دوما التمرغ فيها، لتغطي نفسها بالتراب ولتطرد الذباب والناموس، وكانت تعلق عيدان وأوراق جافة بقروحها تجعلها تبدو كحيوان فريد لامثيل له.

انهارت قبل ان تصل الى الحفرة المنشودة. حاولت النهوض، فرفعت رأسها وشدت قائمتيها الاماميتين، لكن بقية الجسد بقيت ملقاة على الأرض وكأنها قد ماتت. لم تكن قادرة على الحركة وهي في هذا الوضع الملتوي إلا بصعوبة بالغة، وذلك بسحب نفسها مستندة الى قائمتيها، وغارسة مخالبها في الأرض، ومتشبثة بالحجارة. خمدت اخيراً وبقيت ساكنة الى جوار الاحجار، حيث كان الصغير ان يلقيان بالافاعي الميتة.

أحست بعطش رهيب يحرق حنجرتها. حاولت رؤية قوائمها لكنها لم تستطع تبينها، لأن غمامة كثيفة حجبت الرؤية عنها. أخذت تنبح وقد داخلتها رغبة في عضّ فابيانو الحقيقة انها لم تكن تنبح، بل كانت تزعق بصوت خافت، وكان نباحها يخف الى أن صار غير مسموع.

ولأن الشمس كانت تحرقها، فقد تمكنت من التقدم بضع بوصات للاحتماء قليلا في الظل المائل من الحجر.

تطلعت بكآبة من جديد. ماهذا الذي يحدث لها؟ ان الغمامة تصبح أكبر حجماً وتدنو منها أكثر فأكثر.

شمت رائحة أرانب برية شهية تنحدر من الجبل. لكن الرائحة كانت تصل ضعيفة ومحملة بروائح حيوانية أخرى. فخيل اليها أن الجبل قد نأى كثيراً. قطبت أنفها، واستنشقت الهواء ببطء، تراودها رغبة في ارتقاء السفح ومطاردة الأرانب التي تقفز وتعدو بحرية.

بدأت تشهق بصعوبة، كانها تود العواء ولاتستطيع. لعقت شفتها السفلى بلسانها ولم تشعر بأية متعة. أصبحت قدرتها على الشم تتناقص أكثر فأكثر: لاشك ان الأرانب البرية قد هربت.

نسيت الأرانب وعاودتها الرغبة في عضّ فابيانو الذي كان يلوح لعينيها

الـزجـاجيتـين، حاملاً في يديه شيئاً غريباً. لم تكن تعرف كنه هذا الشيء. ولكنها أخـذت ترتعش، موقنـة ان مايحمله ليس سوى مفاجأة غير سارة. حاولت بمشقة ان تتفادى هذا الشيء وأن تشد ذيلها. أغمضت أجفانها الثقيلة وقدرت أن ذيلها قد شُد. انهـا عاجـزة عن عض فابيـانو، فقد ولدت الى جواره، في حجرته، تحت سريـر العـوارض الخشبيـة، وأمضت حياتها منقادة له، تنبح لتجمع المواشي حين يضرب الراعي كفيه ببعضهما.

كل ذلـك الشيء الغريب مايزال يتوعدها. حبست أنفاسها وراقبت العدو من تحت رموشها المنسدلة. وبقيت على هذا الحال لبعض الوقت، ثم استكانت، فقد اختفى فابيانو وهذا الشيء الخطير الذي يحمله.

فتحت عينيهـــا بمشقـة. ظلام دامس كان يلف كل شيء الآن، لابـد ان الشمس قد غابت.

كانت جلاجـل المـاعـز ترن عند ضفة النهر، ونتانة زريبة الخنازير والحظيرة كانت تفوح في كل الانحاء.

فوجئت بالينا. ماالذي تفعله هذه البهائم المفلتة في الليل؟ كان واجبها ان تنهض وتقود القطيع الى المنهل. جعدت أنفها، في محاولة لتمييز رائحة الطفلين. واستغربت حضورهما.

ماعـادت تتـذكـر فابيـانو. لقد وقعت كارثة، لكن بالينا لم تكن لتعز حالة العجز التي تعاني منها الى هذه الكارثة، كما لم تكن تدرك انها براء من المسؤولية. أثقلت الكـآبـة قلبها الصغير. لابد لها من حراسة القطيع، ففي مثل هذه الساعة تنتشـر رائحـة الحيـوانـات الضارية عند الضفة وفي أجمة الجبل. لحسن الحظ أن الطفلين ينامان على الحصيرة، الى جانب الخزانة، حيث تخبيء دونيا فيكتوريا الغليون.

ليل شتائي، ثلجي ومغطى بالضباب، يلف الكون. صمت كامل، دون أيـة علامـة من علائم الحيـاة في المنطقة المحيطة بها. فلا الديك الهرم يصدح على عارضة القن، ولا فابيانو يشخر على سرير العوارض. لم تكن هذه الأصوات لتهم

بالينا كثيرا، ولكن حين يخفق الديك جناحيه وحين يتقلب فابيانو في فراشه، فان الروائح العائلية تكشف لها عن حضور الحياة. لكن المزرعة تبدو الآن كالمهجورة.

كانت بالينا تلهث، غير قادرة على التحكم بفكيها ولسانها المتدلي دون احساس. لم تكن تدري ماالذي حدث. فالدوي، والصدمة التي تلقتها في مؤخرتها والرحلة الشاقة التي قامت بها عبر أرجاء البيت قد تلاشت من روحها.

ربما هي ترقد في المطبخ، بين أحجار الموقد. فدونيا فيكتوريا ترفع قطع الفحم والرماد قبل أن تأوي الى الفراش كل يوم، وتكنس الارض المحروقة بالمكنسة، محولة اياها الى مكان رائع لراحة كلب. فالحر يبعد البراغيث، والارض تصبح أكثر ليناً. وفيما هي على وشك الاغفاء، تركض أرانب برية وتتقافز، ويجتاح جيش منها المطبخ.

كانت القشعريرة تزداد، مغادرة بطنها لتصل الى الصدر. ومن الصدر الى الخلف كان كل شيء جامداً ومنسياً. لكن بقية الجسد كانت ترتعش وكانت أشواك المانداكارو تنغرس في اللحم المتآكل بفعل المرض.

أسندت بالينا رأسها المنهك على الحجر. وكان الحجر بارداً. حقا، لابد أن دونيا فيكتوريا قد أطفأت النار في وقت مبكر اليوم.

بالينا تريد النوم، وستستيقظ سعيدة، في عالم مليء بالأرانب البرية، وستلعق راحتي فابيانو، فابيانو ضخم. وسيتعفر الصغيران معها وسيتدحرجون معاً في فناء فسيح، وفي وحل بركة عظيمة. وسيكون العالم كله مليئاً بأرانب برية سمينة وضخمة.

الفصل العاشر

حســـابات

يتلقى فابيـانـو مقـابـل عمله في المزرعة ربع عدد العجول وثلث السخلان حديثة الولادة. ولانه لم يكن يملك أرضاً للزراعة، ولايكاد يزرع في المنحدر سوى بضع حفنات من اللوبياء والذرة، فقد كان يضطر الى أكل مواشيه دون ان يتمكن من وسم أية بقرة بميسمه المحمى أو وضع علامته على أذن أية نعجة.

لو أنـه يستطيـع الاقتصاد خلال بضعة شهور، لصار قادراً على رفع رأسه. لقـد وضـع خططاً لذلك، ولكنها مجرد ترهات، فحيوانات الأرض غير قادرة على الطيران. وبعد استهلاك البقول وقرض عرانيس الذرة، كان يضطر للاستدانة من أملاك سيده ولتقديم نتاج عمله بأي ثمن. كان يهمهم ويحاول بوجه المكروب أن يســاوم على المـوارد الشحيحـة، فيـما هو يتلعثم، ويتنحنـح ويبتلع ريقـه الجـاف. لو انـه كان يتعامل مع ملاك آخر، لما سُلب بمثل هذه الصفاقة. لكنه يخشى الطرد من المـزرعـة، فيستسلم، ويقبـل النقـود ويسمـع النصـائـح. فمن الخير له ان يفكر بالمستقبل بتعقل. كان يقف هناك وفمه مفتوح، ووجهه أحمر، وعنقه منتفخة. ثم يهتف فجأة:

ـ كل هذا كلام فارغ فقـط. فالمـال يمتطي صهـوة جواد، ولاأحد يستطيع العيش دون طعام. ومن هو في الاسفل لايمكنه الصعود.

وشيئاً فشيئاً كان ميسم الملاك يكوي مواشي فابيانو. وحين لايبقى لدى السير تاني مايبيعه فانه يستدين. وعندما يجيء يوم الحساب يكون قد تورط في الديون ولم يبق له سوى مبلغ بائس.

في هذه المرة، كما في المرات السابقة، حسب فابيانو نصيبه من المواشي، ثم ترك هذا الأمر أخيراً دون ان ينجزه كاملاً ومضى ليستشير زوجته. بعثت دونيا فيكتوريا الطفلين الى بركة الوحل وجلست في المطبخ، مركزة تفكيرها. وزعت على الأرض بذوراً متنوعة وقامت بعمليات الجمع والطرح. وفي اليوم التالي رجع فابيانو الى المدينة، ولكنه حين انتهى من الصفقة وجد أن حسابات دونيا فيكتوريا تختلف كالعادة، عن حسابات المالك. طالب بحقوقه، وتلقى التفسير المعتاد: هذا الفرق هو الضرائب. لم يقتنع: لابد من وجود خدعة. انه بهيمة، أجل ياسيدي، فهو يعرف جيداً أنه بهيمة، ولكن امرأته لها عقل. من المؤكد ان هنالك خطأ مافي ورقة الأبيض. لم يظهر الخطأ وفقد فابيانو السيطرة على نفسه. أيقضي حياته كلها على هذا الحال، محشوراً في جحر وخاسراً مايقسم أغلظ الايمان انه له! أهذا مقبول؟ أمقبول أن يعمل كعبد، دون أمل بالحصول على صك الانعتاق!

غضب المالك، واعتبره سفيها متطاولاً ورأى انه من الأفضل لراعي المواشي ان ينصرف ويذهب للبحث عن عمل في مزرعة اخرى.

حينئذ خفض فابيانو صوته وأظهر الخنوع. حسن، حسن. لم تكن ثمة حاجة لاثارة هذه الضجة، لاياسيدي. واذا ماكان قد تفوه بحماقة، فانه يتوسل الصفح عنها، انه جاهل، ولم يتلق في حياته أي قدر من العلم. لكنه ليس متهوراً، وانما هو يعرف مكانه المناسب. انه كابرا. أيورط نفسه في مشاكل مع أغنياء؟ جاهل، أجل ياسيدي، لكنه يعرف كيف يحترم الناس. لابد أن سبب الفرق في الحسابات هو جهل زوجته. وقد بدت له حسابات زوجته غريبة حقاً. اخيراً، وبما انه لايعرف القراءة (جاهل، أجل ياسيدي)، فانه يصدق كل ماتقوله امرأته. لكنه يعتذر ويعد بألا يفعل مثل هذا الأمر ثانية.

لانَ المالك، وخرج فابيانو ماشياً القهقري، كانساً الأرض بقبعته. وعند

الباب، حين أراد الدوران، تشابك مهمازاه وابتعد متعثرا، حذاؤه الجلدي يضرب الأرض وكأنه حافر.

مضى الى الناصية وتوقف هناك ليلتقط أنفاسه. يجب عليهم ألا يسيؤوا معاملته هكذا. اتجه ببطء نحو الساحة. ولدى وصوله الى حانة دون اغناسيو أدار وجهه وقام بالالتفاف كي لايمر من هناك، لانه كان يتذكر كارثة اللعب مع الجندي الاصفر تلك. جلس على الرصيف، وأخرج النقود ليعدها، محاولاً أن يقدر كم سُلب منه. لايمكنه ان يجهر بان مافعله الملاك هو سرقة، لكنه يعرف انها كذلك. انه يسلبه المواشي بأبخس الاثمان، ثم يخرج عليه بقصة الضرائب. لاضرائب ولاهم يحزنون! الأمر كله قلة حياء.

ـ لصوصية!

لم يسمح له بأية مطالبة. ولانه اعترض على المبالغة، نهض المالك غاضباً، كما لو أن في يديه أربعة أحجار. لماذا كل هذه الضجة؟

ـ همْ!

تذكر ماكان يحدث له سنة بعد اخرى، هناك بعيداً، قبل الجفاف. ففي أحد أيام الشدة بادر الى خنزير ضامر كان يريد تسمينه في الحظيرة والاحتفاظ به لأعياد الميلاد، فذبحه قبل الموعد ومضى ليبيعه في المدينة. لكن موظف البلدية الذي كان هناك ومعه دفتر الايصالات، أمسك به. فتصنع فابيانو البلاهة: لم يفهم شيئاً، انه جاهل. كان الآخر يوضح له أنه لكي يبيع الخنزير لابد له من دفع ضريبة. فحاول فابيانو بدوره اقناعه بانه لاوجود لأي خنزير، وانما هي اجزاء ذبيحة.. قطع من اللحم وحسب. انزعج الشرطي، وشتمه، فهزّ فابيانو كتفيه. حسن، حسن. لينجه الله من الوقوع في مشاكل مع الحكومة. لكنه فكر أنه بامكانه التخلص من اللحم. لم يكن يفهم شيئاً عن الضرائب.

ـ أنا جاهل، ألا تلاحظ ذلك؟

كان يفترض أن الخنوص ملك له وليس لأحد سواه. وحين عرف ان للبلدية جزءاً منه، أحس بالهزيمة المطلقة. سيذهب الى البيت اذن ويأكل هذا

اللحم . أيمكنه أكل هذا اللحم؟ أيستطيع ذلك أم لا؟ كان الموظف يضرب الأرض بقدمه فاقداً الصبر ، بينما فابيانو يعتذر، وقبعة الجلد في يده وظهره منحن :

ـ ومن قال اني أود المشاجرة؟ ومن الافضل ان ننهي هذا .

حيا الرجل ودس اللحم في الكيس ومضى ليبيعه خفية في شارع آخر. ولكنه التقى هناك بمحصل الضرائب ثانية ، وأجبر على دفع الضريبة والغرامة . ومنذ ذلك اليوم قرر ألا يربي خنازير، لان في ذلك خطراً على مايبدو.

نظر الى الاوراق النقدية وقطع النقود المعدنية التي في يده ، ثم تنهد وعض شفتيه . لم يبق له حتى حق الاعتراض . أحنى رأسه . ولو انه لم يحنه لكان عليه ان يغادر المزرعة ويهيم على وجهه مع زوجته وولديه ومتاعه . والى اين سيذهب ، ايه؟ هل له بيت يأوي اليه مع زوجته وابنيه؟ لاشيء له!

مد نظره في الجهات الأربع فيما وراء هذه السطوح التي تحد الأفق ، تمتد السهوب جافة وقاسية . تذكر المسيرة المنهكة التي سارها في هذه الفيافي ، مع جميع أفراد اسرته ، وهم مرهقون وجائعون . لقد نجوا أحياء ، وهذا مايبدو له معجزة ، لانه لايعرف كيف استطاعوا النجاة .

لو انه قادر على استبدال المزرعة ، لصرخ عالياً معلناً انهم يسرقونه . فهو الذي أذعن ظاهرياً ، كان يشعر بحقد شديد على كل شيء : الأرض القاحلة ، والمالك ، والشرطة ، وموظفي البلدية . الحقيقة ان كل شيء ضده . لقد كان معتاداً ، وجلده قاس . لكنه ينتفض أحياناً ، فلا صبر في الدنيا يحتمل كل هذا .

ـ سيُقْدِم رجل في أحد الأيام على عمل رهيب ويورط نفسه .

ولكن ، ألا يرون انه من لحم وعظم؟ واجبه ان يعمل للاخرين ، وهذا طبيعي ، فهو يعرف مكانه . حسن . لقد ولد لهذا المصير البائس . ماذا يمكنه ان يفعل؟ أيمكنه استبدال قدره؟ سيذهل لو قيل له أن من الممكن تحسين حالته . لقد جاء الى الدنيا ليروض حيوانات جامحة وليشفي جراحها بالصلوات ولينصب الاسيجة في الشتاء والصيف . انه القدر . والده عاش هكذا ، وجده أيضاً . وهو لايملك معلومات أقدم من هذه عن عائلته . انه يحمل في دمه أعمال قلع الاشواك

وضـرب القـلائـد الجلدية، وهو راض عن قدره ولا يريد ماهو أكثر من ذلك. فكل شيء على مايـرام اذا منحـوه ماهو له. لكنهم لا يعطونه اياه. فحظه كحظ كلب، لانهم لا يقـدمـون له إلا العظـام. لماذا ما زال الأغنيـاء ينتزعون منه جزءا من هذه العظام؟ انه يشعر بالقرف لرؤية رجال محترمين يلتفتون الى هذه التفاهات.

كانت الأوراق النقـديـة مضمـة بالعرق في راحته. وكان يريد أن يعرف كم هو المبلغ الـذي سلبـوه إيـاه. ففي حسـابـه الأخـير مع المـالـك كانت خسـارتـه كما يبـدو أقـل من الآن. شعـر بالفزع. لقد سمع حديثاً عن ضرائب وأقساط. وقد أثار فيه هذا احسـاسـاً محزنـاً: فدائـماً، وكلما قال له الرجال المتعلمون كلمات صعبة، كان يخرج مخدوعاً. انه يصاب بالذعر حين يسمع مثل هذه الكلمات. فهي لاتنفع دون شك إلا كغطاء للغش والاحتيال. ولكنها كلمات جميلة، هذا صحيح. وهو يتزين ببعضهـا أحيـانـاً ويستخدمها في غير مكانها. ثم ينساها فيما بعد. ولماذا يستخدم فقير مثله كلمات الناس الاغنياء؟ أما دونيا تيرتا بالمقابل، فلها لسان رهيب. وهي تتكلم باسلوب جيد فعلاً، وكأنها من أهل المدينة. لو انه يستطيع ان يتكلم كدونيا تيرتا، لبحث عن عمل في مزرعة اخرى ولاستطاع الاستقرار بشكل أفضل. لكنه لايعـرف. ففي سـاعـات الشدة يتلعثم، ويتخبط كالأطفال، ويحك منكبيه. لهذا يستغلونه. يا للانذال. يسرقون أشياء رجل بائس لامكان له يموت فيه! ألا يرون ان هذا ليس بالأمر الحسن؟ ماالذي سيكسبونه من مثل هذا العمل؟ ايه، ماالذي سيكسبونه؟

ـ آه!

انـه لايـربي الآن خنـازيـر، وهـو لايريد رؤية موظف البلدية ليتقاضى منه ضرائب وغـرامـات، وينتـزع له قميصـه عن جسده، وكما لو كان هذا غير كاف، فيجلده على ظهره العاري ويزج به في السجن. لا، لن يشتغل بعد اليوم اذن، سيستريح.

ربما ان الأمر ليس كذلك. قطع منولوجه وأمضى وقتاً طويلاً وهو يعد النقود في ذهنـه ويعيـد عدّهـا. ثم صرهـا وربطهـا بعد ذلك بالمنديل، ليدسها في جيب

بنطاله، الذي زرره بالزر العظمي. كل هذا مقرف.

نهض ومضى الى بوابة حانة وبه رغبة في الشرب. وبما أن أناساً كثيرين كانوا يستندون الى الكونتوار، فقد فضل عدم الدخول. فهو لايحب ان يجد نفسه وسط الناس، لانه ليس معتاداً على ذلك. فقد يتفوه في بعض الاحيان بشيء دون نية الاساءة، فيفهمون شيئاً آخر وتبرز له المشاكل حينئذ. ان الدخول الى الحانة خطر. الكائن الوحيد الذي يفهمه هي زوجته، فمعها لايحتاج حتى للكلام، بل تكفيه الاشارات والحركات. أما دونيا بيرتا، فهي تحسن التعبير كأهل المدينة. من المناسب للمرء ان يكون هكذا، وتكون لديه وسائل للدفاع عن نفسه. وفابيانو لايملك وسائل كهذه. ولو انها كانت لديه لما عاش على هذا الحال.

من الخطر الدخول الى الحانة. كان يشعر برغبة في شرب ربع زجاجة من الخمر، لكنه تذكر زيارته الاخيرة لمحل دون اغناسيو. فلو انه لم يفكر بالشرب يومها، لما كان وقع في تلك المصيبة. انه غير قادر حتى على تناول كأس من الشراب دون خوف. لابأس اذن، سيرجع الى البيت لينام.

انسحب بطيئاً ومتثاقلاً، سيره خامد الهمة ومهتزاه صامتان. كان يفكر بانه لايجد الى النوم سبيلاً. ففي منتصف سرير العوارض الخشبية كانت توجد عارضة فيها عقدة بارزة. وكان لابد من ارهاق جسدي شديد لكي يتمكن مسيحي من النوم على تلك القساوة. كان يسعى عادة الى انهاك نفسه على صهوة جواد أو يقضي النهار كله في اصلاح السياج، كي يستلقي منهكاً ومثقلاً، ويشخر كخنزير. لن يغمض له جفن الآن. انه يجب ان يفكر بما هو قادر على عمله في المستقبل. لن يفعل شيئاً سوى قتل نفسه في العمل ليعيش في بيت يملكه آخرون، مادامو يسمحون له بالعيش ثم سيخرج بعد ذلك الى الدنيا، ليموت جوعاً في الكاتنجا الجافة.

سحب من جيبه قطعة التبغ وأعد سيجاراً بالسكين. لو انه يتذكر أحداثاً مفرحة على الأقل، لما كانت الحياة كلها سيئة.

غادر الشارع في المدينة. رفع رأسه، ورأى نجمة في السماء، ثم رأى بعد ذلك نجوماً كثيرة. فتلاشت صور أعدائه. فكر بزوجته، وبابنيه، وبالكلبة الميتة مسكينة بالينا! حين فعل ذلك كان يشعر وكأنه يقتل فرداً من أفراد أسرته.

الفصل الحادي عشر

العسكري الأصفر

دخل فابيانو في الممر الذي يصب في البحيرة الكلسية الجافة، المغطاة بشجيرات الكاتنجا. كان يمشي متثاقلاً، جرابه ممتلىء حتى حزامه، ومن ذراعه تتدلى مجموعة من الأطواق الجلدية والجلاجل. وكان منجل الماتشيتي[1] يرتطم بوركه.

كان يتفحص الارض، كعادته في اقتفاء الاثر. تعرف على آثار الفرس ومهرها، آثار حوافر كبيرة وصغيرة. انها الفرس بكل تأكيد، لانه لاحظ وجود وبر مائل الى البياض على جذع شجيرة انجيكو، كما انها قد بالت على الرمل فأفسد البول آثار الحوافر، وهو مالايحدث لو كان الفاعل حصاناً.

كان فابيانو يمضي خالي الذهن، متفحصاً هذه العلامات التي يصادفها وغيرها من آثار الكائنات الأقل أهمية. وفيما هو منحن الى الامام، كان يبدو وكأنه يشم الأرض، وكانت الكاتنجا القاحلة تضج، والحيوانات التي مرت من هناك تعود للظهور أمام عينيه المنطلقتين.

واصل السير في الاتجاه الذي اتخذته الفرس. مشى نحو مئة ذراع حين علق الرسن الذي يحمله على كتفه بشجيرة. فك اللجام، وأمسك بالمنجل وراح يقطع الشجيرات ونباتات الصبر التي تسد الطريق.

---

(١) منجل الماتشيتي: نوع من المناجل المستخدمة في اميركا، وهو اشبه بالسيف

تغطت الأرض باجزاء شوكية من الصبر : لقد قام بعملية تخريب حقيقية . توقف حين سمع أغصاناً تتكسر، والتفت ليلتقي وجها لوجه بالعسكري الاصفر الذي قاده قبل سنة الى السجن، حيث ضُرب وأمضى ليلة في الزنزانة . أنزل منجله قبل ان يتعرف عليه . دام ذلك ثانية واحدة . بل أقل . . جزءاً من الثانية فقط . لانه لو دام أكثر من هذا، لكان الأصفر قد تجندل معفراً بالتراب، ورأسه مشجوج . ولأن الدافع الذي حرك ذراع فابيانو كان قوياً جداً، فان تلك الحركة كانت ستكفي للقتل، لولا أن دافعاً آخر حرك ذراعه في الاتجاه المعاكس . وتوقف النصل المشدود قريبا من رأس الدخيل، فوق القبعة الملونة تماماً . لم يفهم راعي المواشي شيئاً أول الأمر . فما كاد يرى العدو ماثلاً أمامه، حتى أدرك على الفور أن ذلك العدو انسان، والاخطر من ذلك انه السلطة . أحس بصدمة عنيفة وخمد، وأخذت ذراعه المترددة تتمايل من جهة الى أخرى مثل دمية .

كان العسكري الهزيل يرتجف . وكان فابيانو يشعر برغبة في رفع منجله ثانية . كان راغباً في ذلك، لكن عضلاته كانت تتراخى . الحقيقة انه لايريد قتل مسيحي : كان يتصرف كتصرفه حين يمتطي حيواناً جامحاً، وينطلق متفادياً الاغصان والاشواك . انه لايعي الحركات التي يقوم بها حين يكون على صهوة البهيمة، لكن شيئاً يدفعه نحو اليمين أو نحو اليسار لتفادي الاغصان . وهذا الشيء ذاته هو الذي كان يدفعه نحو رأس الاصفر . ولو استمر هذا الدافع للحظة اخرى، لتحول فابيانو الى فلاح جلف . لكنه لم يستمر، وانما ظهر مكانه الاحساس المؤكد بالخطر : وقف حائراً وقد فتحت الدهشة عينيه على اتساعهما . وكان يتنفس بمشقة، وبدت على وجهه الملحي والمغطى بالعرق ملامح رعب حقيقي، بينما قبضة المنجل تتراخى بين أصابعه الرطبة .

كان خائفاً، يردد بينه وبين نفسه انه في خطر، لكن ذلك بدا له سخيفاً، مما دفعه للضحك . أيخاف من هذا؟ لم ير في حياته كلها شخصاً يرتعش هكذا . انه كلب . أولم يكن متغطرساً في المدينة؟ أولم يكن يدوس أقدام الماتوتو في المهرجان؟ أولم يكن يزج بهم في السجن؟ النذل . . السافل .

غضب لماذا تصطك أسنان هذا الأخرق كأسنان سنجاب؟ ألا يرى ان فابيانو عاجز عن الانتقام؟ ألا يرى؟ ضغط فكيه، وقطب جبينه. كانت فكرة الخطر تختفي. أي خطر؟ بل انه لايحتاج للسكين في مواجهة هذا.. أظافره وحدها تكفي. وفيما الجلاجل والأطواق الجلدية تهتز، مد يده اليسرى الكبيرة والكثيفة الشعر الى وجه الشرطي، الذي تراجع بضع خطوات الى الوراء واستند الى شجرة الكاتجيرا. ولولا الشجرة لوقع هذا التعيس على الأرض.

سلط عليه فابيانو عينيه المحتقنتين بالدم وأغمد المنجل في قرابه. يمكنه ان يقتله بأظافره. تذكر الضرب الذي ضربوه اياه، والليلة التي أمضاها في الزنزانة. أجل ياسيدي. هذا شخص يكسب نقوده بالاساءة للناس المسالمين. هل هذا مقبول؟ كان وجه فابيانو يتغضن بشكل رهيب، ويقبح أشد من قبح تكشيرة حيوان. ايه، هل هذا حسن؟ لماذا التحرش بالناس الذين لايسيؤون الى أحد؟ كان يختنق، وتقطيب جبهته يشتد، وعيناه الزرقاوان الصغيرتان تتسعان أكثر، في استفهام مؤلم.

انكمش العسكري لاثذاً بالشجرة. وغرس فابيانو أظافره في راحتيه القاسيتين وبه رغبة في العودة ثانية الى حالة فقدان الوعي. ولكن العودة الى لحظة اللاوعي تلك كانت مستحيلة. كان يكرر لنفسه انه ليس بحاجة لاستخدام السلاح، مع انه كان واثقاً من انه لن يستخدمه: فهو لم يتمكن حتى من خداع نفسه. وفي لحظة واحدة، تعاظم غضبه لاحساسه بالعجز، مما جعله يستعيد اندفاعه ويتقدم نحو الخصم.

لكن الغضب لم يستمر طويلاً، ومالبث ان أرخى أصابعه التي كانت تجرح بأظافرها راحتيه، ووقف متردداً، وقد لان جسده فجأة.

لم يكن يبدو من العسكري المختبيء وراء الشجرة سوى ذراع وساق وجزء من وجهه، لكن جزء الانسان هذا بدأ يكبر أمام عيني راعي المواشي. وكان الجزء الاخر، المختفي، أكبر. حاول فابيانو اقصاء الفكرة السخيفة عن ذهنه.

ـ أية طريقة للتفكير بالحماقات!

قبل لحظات قليلة لم يكن يفكر بشيء، لكنه الآن يتعرق عرقاً بارداً وتراوده أفكار لاتطاق. انه مخلوق عنيف، قلبه قاس كالحجر. انه كابرا يفقد السيطرة على نفسه أحياناً، وحين يحدث هذا تكون النهاية وخيمة دوماً. فلو انه لم يفقد صبره مساء ذلك اليوم مثلاً، ولم يشتم أم السلطة، لما نام في الزنزانة بعد تحمله الجلد على ظهره. لقد انهال عليه يومها شيطانان، وكان هنالك حديد يضرب صدره وآخر يضرب ظهره فيما هو يجرجر نفسه مرتعشاً كدجاجة مبللة. كل ذلك لانه فقد صبره وتفوه بكلمة طائشة. وقاحة. ولكن، هل كان هو المذنب؟ وقفت فصيلة العسكر في صف، وشق العريف طريقه وسط الفلاحين في المهرجان: « تقدم! »، ثم جاء الضرب والزنزانة بعد ذلك، بسبب حماقة. لقد تعرض، هو فابيانو، للاستفزاز. أكان الأمر كذلك أم لم يكن؟ لقد ضغط حذاء الآخر على قدمه، فقد صبره وتطاول بالكلمة. ان شتم الأم لايعني شيئاً، لانه يمكن ملاحظة عدم وجود نية لاقتراف عمل سيء بوضوح، انه مجرد قول لاأهمية له. كان لابد للاصفر من معرفة ذلك. لكنه لم يكن يعرفه على مايبدو. فغضب وأطلق صفارته. وكان على فابيانو أن يعرف هذه اللعنة. « هيا ».

تقدم خطوة باتجاه الشجرة. اذا ماصاح هو الآن « هيا »، فماذا سيفعل الشرطي؟ لن يستطيع المشي بالتأكيد، سيبقى هناك وكأنه ملتصق بالجذع. حماقة طيبة: يستطيع شتمه الآن بكل أمان، ذاكراً أم العسكري الاصفر. ولكن حينئذ.. كان فابيانو يمط شفته ويدمدم بشيء. ان هذا الرجل الضامر يزج الناس في السجن ويضربهم كما يشاء. لن يفهم. لو انه كان رجلاً يتنفس قوة وبسالة، اذن لكان الامر مقبولاً. ثم ان الضرب على يد الحكومة في نهاية المطاف لايمس الكرامة، بل ان فابيانو يشعر بالفخر لهذه المغامرة. أما هذا... وأطلق عدة زمجرات. لماذا تستغل الحكومة الناس هكذا؟ لايمكنه تفسير ذلك إلا بان الحكومة تخشى استخدام أشخاص محترمين فتستخدم هذا الصنف الذي لاينفع إلا في عض الناس المسالمين. أيمكن له، هو فابيانو ان يصبح شريراً كهذا اذا ما

ارتدى الزي العسكري؟ أيكون قادراً على دوس أقدام الفقراء أو ضربهم؟ انه لايفعل مثل ذلك بكل تأكيد.

اقترب ببطء وقام بالالتفاف ليجد نفسه أمام الشرطي الذي كان مستنداً على الجذع، والذي استطاع بمشقة ان يرفع يده المرتعشة الى المسدس والخنجر عديمي الجدوى. انتظر منه ان يتحرك. كان واضحاً انه ليس سوى كتلة بؤس، لكنه يرتدي البدلة العسكرية ولن يبقى على هذا الحال. كانت عيناه على وشك الخروج من محجريهما، وشفتاه شاحبتين وأسنانه تصطك. لماذا لايصرخ الآن ويدوس بكعب حذائه على قدمه؟ لكم هو راغب في ان يفعل به هذا! ان فكرة شتمه وسجنه وطحنه بالضرب على يد مخلوق بائس كهذا، لاتطاق. كان ينظر الى جبن هذا الكائن، ليرى نفسه أكثر بؤساً ومدعاة للرثاء من الآخر.

خفض رأسه، وحك شعرات حنكه الشقراء. اذا لم يسحب العسكري سكينه ولم يصرخ، فسيكون، هو فابيانو، مخلوقاً شقياً. هو، فابيانو، حيوان قوي وعنيد. انه عصبي ويود الشجار، ففي زمن آخر كان يحب المشاجرات وكان يخرج منها مرفوع العرف. تذكر صراعات قديمة في حفلات رقص فيها نساء وخمر. في احدى المرات، حمل السوط بيده، وأجبر جميع الزنوج على الهرب. وكان حينئذ ان بدأت دونيا فيكتوريا تُعجب به. لقد كان دوماً رجلاً قوياً. أهو يبرد مع التقدم في السن؟ كم صار عمره؟ انه يجهل ذلك، ولكن لاشك انه يشيخ ويضعف. لو كانت لديه مرآة، فلربما رأى تجاعيد وشيبا. حطام حقيقي. لم يشعر بالتحول، لكنه مستنفد.

رطب العرق يديه الصلبتين. ماهذا؟

أيتعرق خوفاً من هذا الطاعون الذي يختبيء مرتعداً؟ أليست هذه نكبة حقيقية؟ أليست هي النكبة الكبرى؟ ربما أن دمه لم يعد يحمى وأنه سيقضي مابقي من حياته هكذا، ضعيفاً وخائراً. كيف يتغير الناس! انه كذلك، وقد تغير. كان يبدو وكأنه شخص آخر، مختلف تماماً عن فابيانو الذي كان يثير الغبار في صالات الرقص. انه فابيانو صالح لتلقي الضرب على ظهره والنوم في الزنزانة.

أدار وجهه وخبأ السكين في غمدها. ليست هذه بسكين، وهي لاتنفع لشيء. مؤكد انها غير نافعة!

ـ من قال انها غير نافعة؟

انها سكين حقيقية. أجل ياسيدي، تتحرك كالبرق وهي تقطع النباتات المتشابكة. وكانت على وشك ان تشق رأس هذا النذل. انها ترقد الآن في الغمد المهتريء كشيء غير نافع، لكنها كانت سلاحاً. لو ان ذلك الشعور استمر لثانية اخرى، لكان هذا الشرطي يرقد خامداً الآن. تخيله هكذا، على الأرض، ساقاه مفتوحتان، وعيناه وجلتان، وخيط من الدم يلتصق بشعره وينزف ليشكل جدولاً صغيراً مابين حصى الدرب. حسن! كان عليه ان يسحبه حينئذ نحو الكاتنجا، ليسلمه للضواري. ولن يشعر بأي تأنيب ضمير. سينام مطمئن البال مع زوجته، على سرير العوارض.. وسيصرخ بعد ذلك في وجه الصغيرين، لانهما بحاجة للتربية. انه رجل دون ريب.

حدق في عيني العسكري اللتين زاغتا. رجل. من الحماقة التفكير انه سيتحول الى مخلوق ضعيف فيما تبقى من حياته. هل انتهى؟ لم ينته. ولكن لماذا يزهق روح هذا الكائن التعيس الذي يرتجف ولايريد سوى الانهيار على الأرض؟ أينهي نفسه من أجل هذه الضآلة المتشحة بالزي العسكري، والتي لاعمل لها سوى التسكع في المهرجانات وشتم الفقراء! لن ينهي نفسه، ليس هنالك مايستحق انهاءه لنفسه. من الخير له الاحتفاظ بقواه.

هرش رأسه وهو يتمايل. هنالك الكثير من هذه الحيوانات البائسة، هنالك أعداد هائلة من الحيوانات المماثلة، الضعيفة والشريرة.

ابتعد قلقاً. وحين رآه العسكري مرتبكاً ومسالماً، استرد شيئاً من شجاعته وتقدم بخطوات ثابتة، وسأله عن الطريق. فنزع فابيانو قبعته الجلدية.

ـ الحكومة هي الحكومة.

لقد كشف عن رأسه لينحني احتراماً ويشير للعسكري الاصفر الى الطريق.

الفصل الثاني عشر

الدنيا مغطاة بالريش

غصت شجرة المولونغو التي عند المنهل بأسراب الطيور. انها علامة شؤم: فقد يتقد السير تاو ملتهبا عما قريب. ان الطيور، في غزوها، تحتل الاشجار التي عند ضفة النهر لتستريح، وحين لاتجد طعاماً فيما حولها، تواصل رحلتها نحو الجنوب. ويحتضر الزوجان وهما يفكران بهول الكارثة الآتية. فالشمس تمتص ماء البركة، ثم تأتي هذه العصافير اللعينة لتقضي على البقية الباقية من الماء، انها تريد قتل المواشي

هكذا تكلمت دونيا فيكتوريا، لكن فابيانو همهم مقطباً جبينه، ووجد ان العبارة حمقاء. هل قتلت الطيور يوماً الابقار والنعاج؟ أي شذوذ هذا! وتأمل زوجته بعينين مرتابتين، وهو يخشى من انها تهذي. مضى ليجلس على مقعد الفناء وتفحص السماء الصافية، المشعة بضياء مشؤوم، تجوبه أسراب الطيور اللانهائية. أيقتل المواشي طائر صغير ذو ريش! فيكتوريا ليست بكامل وعيها.

مطّ فابيانو شفته بحركة حيرى وزاد من تجعيد جبهته المتعرقة: من المستحيل فهم ماتقصده المرأة. انه عاجز عن الوصول الى يقين. حيوان بهذا الصغر يقتل المواشي! وجد ان الفكرة غامضة وتخلى عن التمعن بها. دخل الى البيت وأحضر الجعبة. أشعل سيجاراً وضرب بالبندقية على الحجر حين أخذ نفساً

عميقاً. تأمل الجهات الأربع، وبقي ملتفتا لعدة دقائق صوب الشمال فيما هو يهرش ذقنه.

ـ يالنهاية العالم!

لن يستمر بالبقاء هنا لوقت طويل، اذ لايُسمع في الصمت الكبير سوى خفق الاجنحة.

كيف هو هذا الذي قالته دونيا فيكتوريا الآن؟ وعادت عبارتها الى روح السيرتاني، فانكشف له معناها في الحال. الطيور المهاجرة ستشرب الماء حسناً. وستعاني المواشي من العطش وتموت. حسن جداً. لو فكرنا جيداً، لكان هذا سهل الفهم، لكن دونيا فيكتوريا تستخدم عبارات ممطوطة ومشوشة. الآن فهم فابيانو كانت تعنيه. نسي الكارثة الوشيكة الوقوع، وضحك سعيداً لنباهة دونيا فيكتوريا. ان مخلوقة مثلها تساوي ذهباً. لديها أفكار، أجل ياسيدي، لديها أشياء كثيرة في رأسها. وهي تجد مخرجاً في الاحوال الصعبة. ألم يكن ماقالته واضحاً؟ اكتشافها أن أسراب العصافير تقتل الماشية! وهي تقتلها حقاً. كانت شجرة المنهل، العارية من الأوراق والأزهار. والمتحولة الى هيكل أجرد، تبدو الآن مليئة بالريش.

أحب رؤية ذلك المشهد عن قرب، فنهض ملقياً بالجعبة على كاهله ومضى بحثاً عن قبعة الجلد والبندقية القديمة. اجتاز البيت واقترب من وهدة النهر مفكراً بالكلبة بالينا. يالللمسكينة! لقد ظهرت تلك الاشياء الرهيبة في فمها، وأخذ وبرها يتساقط، وكان لابد من قتلها. هل أحسن التصرف؟ لم يفكر بهذا مطلقاً، لقد كانت الكلبة مسعورة. أيمكن السماح لها بعضّ الصغيرين؟ أيمكن السماح بهذا؟ من الجنون تعريض الصغيرين للاصابة بالكَلَب. مسكينة بالينا. هز رأسه ليقصي الذكرى عن روحه. ان هذه البندقية اللعينة هي التي تجلب الى ذهنه ذكرى الكلبة المسكينة. البندقية القديمة دون شك. أمال وجهه عن الاحجار التي عند طرف الفناء، حيث وجدوا بالينا مبتورة ومتيبسة، وقد نقرت الغربان عينيها.

وسع خطواته وهبط المنحدر، واطئاً الأرض المتشكلة من الرواسب في

اقترابه من المنهل. كان ثمة خفق أجنحة مجنون فوق بركة الماء الأسود، وكان هيكل الشجرة مختفياً تماماً. وباء.. فحين تهجر هذه الطيور الصحراء يكون كل شيء قد انتهى. الماشية ستفنى، وحتى الاشواك ستجف.

تنهد. ماالذي يستطيع عمله؟ أيهرب مرة اخرى ليأتلف مع مكان آخر، ويبدأ الحياة من جديد؟ رفع البندقية وضغط على الزناد دون أن يصوب، فهوت خمسة أوستة طيور على الأرض، بينما فزعت الطيور الاخرى وظهرت الاغصان المحروقة عارية، ولكنها مالبثت أن عادت تكتسي بالريش شيئاً فشيئاً، ولم تكن لهذا من نهاية.

جلس فابيانو قانطاً على ضفة المنهل وراح يحشو بندقيته بخردق دقيق، واتخذ كل الاحتياطات كي تنتشر الحشوة كثيراً وتقتل عدداً كبيراً من الاعداء. عيار ناري جديد وسقوط طيور جديدة. لكن هذا لم يسبب أية متعة لفابيانو. انه طعام يومين أو ثلاثة أيام، ولو كان لديه ذخيرة كافية، لحصل على طعام يكفيه لاسابيع أو شهور.

تفحص جراب البارود وجراب الخردق وارتعش حين فكر بالرحلة. حاول خداع نفسه وتخيل ان الهروب لن يحدث ان هو لم يستثره بافكاره المشؤومة. أشعل سيجارة أخرى وحاول شغل تفكيره بالحديث مع نفسه. ان دونيا تيرتا هي المخلوقة الأكثر نصيباً من التعلم في الجوار. كيف كانت ستجري حسابات المالك؟ هذا مالم يستطع الوصول اليه أبداً. فمسألة الضرائب هذه تبتلع كل شيء، ويجد ان الابيض يسدي اليه في آخر الأمر معروفاً عظيماً... والعسكري الأصفر...

أطبق فابيانو قبضته حانقاً، وضرب بها على فخذه. شيطان! كان يحاول جاهداً نسيان نكبته فتصفعه الذكريات بنكبات كثيرة. انه لايريد ان يتذكر المالك ولا العسكري الاصفر. لكن الذكرى تأتيه باليأس دون ان يستدعيها، فينطوي حينئذ كنابض على وشك الانفلات. انه تعيس.. أشد مخلوقات الدنيا تعاسة. كان عليه في ذلك المساء طعن العسكري الاصفر، كان عليه ان يقطعه بالسكين. انه مجرد كابرا عادي وبلا شجاعة، لقد انحنى له ودله على الطريق. مرّ بيده على

جبهته المجعدة والمتعرقة. لماذا تذكر هذا العار؟ كان يشعر بالاسى على نفسه. أمكتوب عليه اذن ان يعيش هكذا الى الابد؟ كابرا جاهل وضعيف. فلو لم يكن ضعيفاً لانضم الى قطاع الطرق ليرتكب أكثر من مجزرة. ثم ليتلقى بعد ذلك طلقة في أحد الكمائن أو يشيخ في السجن وهو يقضي محكوميته. ولكن هذا أفضل من الانتهاء على قارعة الطريق، حيث يشويه الجفاف الرهيب، وحيث يرى زوجته وابنيه وهم يحتضرون. كان عليه ان يثقب بخنجره عنق الاصفر ببطء. ربما كان سيذهب الى السجن حينئذ، ولكنه سيكون محترماً، رجلاً محترماً، بكل مافي كلمة رجل من معنى. أما في حالته هذه فلن يحترمه أحد. فهو ليس رجلاً، ليس شيئاً. انه يتحمل الجلد على ظهره دون ان ينتقم.

فابيانو، كن شجاعاً يابني. كن مندفعاً يافابيانو. اقتل العسكري الاصفر. ان العساكر الصفر هم جماعة تعساء يجب ان يموتوا. اقتل العسكري الاصفر والذين يوجهونه.

ولانه كان يلوح بحركات هائجة، فقد استنفد طاقة كبيرة وفقد أنفاسه وأحس بالعطش الشديد. كان العرق يسيل على وجهه الاحمر المحروق ويجعل لحيته الشقراء أكثر قتامة. نزل المنحدر، وانحنى عند ضفة الماء المالح وراح يشرب بصخب مستعيناً براحتيه. طارت سحابة من العصافير الفزعة، فنهض فابيانو وفي عينيه بريق غضب.

ـ تعساء!

وعاد غيظه ينفجر ضد العصافير. جلس ثانية على الضفة، وهز أغصان المولونغو عدة مرات بطلقات بندقيته، فتغطت الأرض بالجثث الصغيرة. سيحملها مشكوكة في خيط، وستنفعه كطعام للرحلة الوشيكة. عليه ان ينفق مابقي معه من نقود لشراء بارود وخردق، ثم عليه ان يقضي يوماً عند المنهل، لينطلق بعد ذلك هائماً على وجهه عبر الدنيا. ولكن، هل هذا الرحيل ضروري؟ ورغم معرفته بحتمية الرحيل، إلا انه كان يتشبث بالآمال الواهية. ربما لن يأتي الجفاف... ربما نزل المطر. هذه العصافير اللعينة تخيفه. حاول نسيانها، ولكن

كيف له ان ينساها وهي تطير فوق رأسه، وترتعش في الوحل، وتتعلق على جميع الاغصان، وبعضها ميت ومنثور على الأرض؟ لولا هذه العصافير اللعينة لما كان هنالك جفاف. أو أنه ماكان سيحل الآن على الأقل.. كان سيأتي فيما بعد، فتصبح النكبة أقصر أمداً. أما هكذا فسيبدأ الجفاف في الحال، وعلى فابيانو ان يدرك هذه المصيبة وهي ماتزال بعيدة. وأحس بها وكأنها قد حلت بكل زخمها، وأحس مسبقاً بطعم جوع الهاربين وعطشهم وانهاكهم الشديد. قبل أيام كان يشعر بالطمأنينة، فكان يعد الاطواق ويصلح السياج. وفجأة يظهر خط في السماء، ثم خطوط اخرى، وآلاف الخطوط المجتمعة، لتشكل سحباً حقيقية، ويأتي معها خفق الاجنحة الرهيب الذي ينذر بالخراب. لقد كان يشعر بحتمية الكارثة المؤلمة وهو يرى الينابيع تجف. وكان ينظر بسخط الى ضياء الصباحات الطويلة الابيض، واحمرار المغيب المشؤوم. فتتأكد كل شكوكه.

ـ تعساء!

هذه الطيور اللعينة هي سبب الجفاف، وسيختفي الجفاف ان هو قتلها. بدأ يحشو بندقيته بغيظ. كانت يده الضخمة والمشققة، ذات الشعر الغزير والمليئة بالبقع، ترتعش وهي تجهز السلاح.

ـ وباء.

من المستحيل القضاء على هذه الجائحة. مد بصره عبر الفضاء ووجد نفسه معزولاً وحيداً في عالم مغطى بالريش، مغطى بطيور ستنتهي الى أكله. فكر بزوجته وتنهد مسكينة دونيا فيكتوريا.. ستعود لتهيم على وجهها في العراء، حاملة صندوق القش على رأسها. كان يجد صعوبة في الاقتناع بان شخصاً راجح العقل كزوجته يضطر للرحيل، ساخناً قدميه بالحصى. ستقتل أسراب العصافير المواشي. كيف استطاعت دونيا فيكتوريا اكتشاف هذا؟ انه لشيء صعب طبعاً. فهو فابيانو، لن تخطر له عبارة كهذه حتى ولو عصر دماغه الى أقصى مايستطيع. ان دونيا فيكتوريا تتقن العد على أحسن وجه: فهي تجلس في المطبخ، وتتفحص

أكداس البذور المتنوعة، التي تشير الى الميليرات والتوستوات والفينتينلت[1]. وتصيب في حساباتها. أما حسابات المالك فمختلفة، لانها مدونة بزيف الحبر وضد مصلحة راعي المواشي. لكن فابيانو كان يعرف ان هذه الحسابات خاطئة وان المالك يريد خداعه. وكان يخدعه دون شك. لقد كان، هو فابيانو، كابرا تعيساً، ينام في الزنزانة ويتحمل الجلد في ظهره. وهل يمكنه الرد؟ لابد ان رده ككابرا هو نعم ـ لا. ولكن حسابات دونيا فيكتوريا مضبوطة دون ريب. يالدونيا فيكتوريا من بائسة! لم يستطع أبداً ان يلبي رغبتها الوحيدة. ألا ينام الاخرون على أسرة جيدة؟ كان فابيانو مكرها على الاقرار، بينه وبين نفسه فقط، بانه متفق مع كل ماتقوله زوجته، حتى وان كان هذا الذي تقوله مجرد حلم. فهما لن يتمكنا أبداً من النوم كبشر. وهاهي أسراب العصافير ستقضي عليهم الآن.

نزل الوهدة وراح يجمع العصافير الميتة يتمهل. دسها في الجراب، الذي امتلأ وصار منتفخاً مثل بدين. وانسحب ببطء. سيأكل هو ودونيا فيكتوريا والصغيران من هذه العصافير.

لو ان الكلبة بالينا ماتزال على قيد الحياة، لأمكن لها ان تشفى بأكل هذا القدر من العصافير. مالقلبه يضيق هكذا؟ يالكلبة المسكينة. لقد قتلها لدافع أقوى منه.. لانها كانت مريضة جداً. عاد بذاكرته الى الجلدات التي تلقاها على ظهره، الى الاسيجة والى حسابات المالك المعقدة. ارتقى المنحدر مقتر باً من الجوازيرو. الى جانب احدى تلك الاشجار، كانت المسكينة تتقلب لتغطي جسدها بالاغصان والاوراق الجافة. تنهد فابيانو حين أحس بثقل عظيم في داخله. وماذا لو انه اقترف خطأ بفعلته تلك؟ تطلع الى السهب الكلسي والرابية التي كانت تقفز عليها الارانب البرية واعترف أمام شجيرات الكاتنجيرا، ونباتات الصبار والاشواك بان الكلبة كانت مسعورة وتشكل خطراً على الصغيرين، ولهذا قتلها.. ولكي لايفكر بها أكثر.

حينئذ تشابكت أفكار فابيانو: اختلطت الكلبة بأسراب العصافير، التي

(١) من وحدات النقد البرازيلي.

تجسدت بدورها بالجفاف. سيموت هو وزوجته والصغيران. لقد كانت دونيا فيكتوريا محقة: انها لبيبة وتدرك الأمور من بعيد. فتح فابيانو عينين مدهوشتين، لن يتوقف أبداً عن تقديرها. لكن قلبه الكبير المنتفخ، مثل ضفادع الغابة الضخمة، كان مفعماً بذكرى الكلبة. يالليسكينة، انه يراها ثانية، نحيلة، متيبسة، ومبتورة، وقد فقأت الغربان عينيها.

أمام الجوازير، رسم فابيانو اشارة الصليب. فمن يستطيع القول ان روح بالينا لاتمضي متألمة في هذه الانحاء؟

وصل الى البيت وهو أسير الخوف. كان الظلام يخيم، وكان يحس دوماً ببعض المخاوف في مثل هذا الوقت. انه يعيش في كآبة وخمود في الأيام الاخيرة، لأن المصائب كانت تتوالى بكثرة. عليه ان يستشير دونيا فيكتوريا ويعد العدة للرحيل، ليتخلص من صورة غزو العصافير، وليوضح لنفسه ويقنعها بانه لم يقترف ظلماً بقتله الكلبة. ولابد له من هجر هذه الأماكن اللعينة. وستكون دونيا فيكتوريا معه.

الفصل الثالث عشر

هـــروب

أصبحت الحيـاة في المـزرعة أقسى . كانت دونيا فيكتوريا لاتني ترسم اشارة الصليب بيـد مرتعشـة ، وتقلب السبحـة ، وتحـرك شفتيهـا المتـوسلتين وهي تصلي متضرعة قانطة . وكان فابيانو المنزوي على مقعد الفناء ، يتأمل الكاتنجا الصفراء ، حيث الأوراق اليـابسـة التي تعصف بها الزوابع فتطحنها وتحولها الى غبار ، وحيث الاغصـان تلتـوي سوداء ومكلسـة . وكانت آخر أسراب العصافير قد اختفت من السـماء . وشيئـاً فشيئـاً كانت الحيـوانـات تنفق ، وتعيث بها الطفيليـات . ويصمد فابيانو ، طالباً من الله معجزة .

ولكن حين أقفـرت المـزرعـة ، رأى أن كل شيء قد ضاع وقـرر الرحيل مع زوجتـه ، فذبـح العجـل الضـامر ، وهو الحيوان الوحيد المتبقي لديه ، وملّح اللحم وانطلق في المسـير مع اسـرتـه ، حتى دون ان يودع سيـده . فهو لن يستطيع مطلقاً تسديد هذه الديون الباهظة ولم يبق له سوى ان يضرب في الدنيا ، مثل عبد يهرب من نير العبوديه .

خرجـوا فجـراً . مدت دونيـا فيكتـوريـا ذراعها من الفجوة التي في الجدار ، وأغلقت البـاب الأمـامي بالمزلاج . اجتازوا فناء البيت في الظلام ، وخلفوا الزريبة والقن خاويـين ومشـرعي الابـواب ، وكـذلـك العـربة التي ستتلف ، والجوازيرو .

ولدى مرورهم الى جانب الاحجار، حيث كان الصغيران يلقيان بالافاعي الميتة، تذكرت دونيا فيكتوريا الكلبة بالينا وبكت، ولكنها فعلت ذلك وحيدة دون أن يراها أحد.

نزلوا الوهدة، وبعد ان اجتازوا منحدر النهر الجاف، اتجهوا صوب الجنوب. واستطاعوا ان يسيروا في برودة الفجر شوطاً طويلاً وهم صامتون، أربعة أشباح فوق الدرب. كان الصغيران يمضيان في المقدمة، حاملين حزم الملابس. ودونيا فيكتوريا تمشي تحت ثقل صندوق القش المطلي وقرعة الماء، فيما يقفل فابيانو المسيرة، حاملاً منجله وخنجره، والزمزمية المتدلية من رباط مثبت بالحزام، والمخلاة معلقة على الرقبة، والبندقية على أحد الكتفين وعلى الكتف الآخر العصا. ساروا أكثر من ثلاثة فراسخ قبل ان يبزغ ضوء الشمس.

توقفوا للراحة. أنزل فابيانو جزءاً من حمولته على الأرض، ونظر الى السماء، مستخدماً يديه كواقية على جبهته. لقد تجرجر الى هنا وهو موقن أن هذا كله ليس رحيلاً. كان يحاول التأخير، وقد أنب الصغيرين في احدى اللحظات لانهما يتقدمان مسرعين، ونصحهما بان يوفرا طاقتيهما. لكنه في الحقيقة ماكان يريد الابتعاد عن المزرعة. كان يرى في هذا الرحيل عملاً لامبرر له، ولم يكن راغباً في القيام به أحياناً. لقد أعد العدة للرحلة ببطء ليؤخر موعدها، فكان يبدأ الاستعداد للرحلة، ثم يعود للبدء في الاستعداد لها من جديد. ولم يقرر الرحيل الا حين فقد الرهان تماماً. أيمكنه الاستمرار بالحياة في مقبرة؟ فلا شي يربطه بهذه الأرض القاسية، وسيبحث عن مكان أقل جفافاً ليُدفن فيه. هذا ماكان يقوله فابيانو وهو يفكر بأشياء اخرى: بالزريبة والقن اللذين بحاجة للاصلاح، بحصان الخدمة، الرفيق الطيب، وبالفرس الشقراء، بالكانتجيرا، بقلائد الجلد، وحجارة الموقد وسرير العوارض. فيشعر ان ركبتيه مصنوعتان من الزبدة وان صندله يتوقف في الظلام. أكان لابد من التخلي عن كل شيء؟ ثم يصر الصندل ثانية على الدرب المغطى بالحصباء.

يتفحص فابيانو الآن السماء والضوء الذي يولد ولايتمكن من الاقتناع

بالـواقـع . حاول رؤيـة شيء مختلف عن هذا الاحمرار القرمزي الذي يراه كل يوم بقلب هلع . وكـانت يداه العظيمتـان ترتعشـان وهما تحميان عينيه من الضوء تحت واقية القبعة المرفوعة . وهوت ذرعا ، بيأس :

ـ لقد انتهى كل شيء .

قبل ان ينظر الى السماء ، كان يعرف انها سوداء في جانب وحمراء بلون الدم في الجـانب الآخـر ، وانها ستتحول الى لون ازرق عميق . فارتعش وكأنه يكتشف أمراً مؤذياً لأول مرة .

مذ ظهـرت أسـراب العصـافير وهو يعيش في قلق . صار يعمل حد الانهاك لكي لايفقـد الأمـل ، ولكن قشعـريـرة كانت تنتاب ظهره وهو منهمك في العمل ، ويتـذكـر ماسيحـدث وهـو يحتضر في الليل ، فينطوي على نفسه في ركن من سرير العوارض ، متكهناً بأصناف البؤس التي سيواجهها ، فيما البراغيث تلسعه .

اشتد الضياء وعم السهب . وكان ان بدأت الرحلة حينئذ . ركز فابيانو نظره في زوجتـه وابنيـه ، ثم تنـاول البنـدقيـة وكيس المؤونـة ، وأطلق صيحـة حادة آمراً بالانطلاق في المسير .

غذوا في السـير ، وكأن هنـاك من يطـاردهم . وكـان نعـلا فابيـانـو يكـادان يدوسـان كعبي الصغـيرين اللذين يسبقانه . وكانت ذكرى الكلبة بالينا تثقل عليه بشكـل لايطـاق . انـه عاجـز عن التخلص من هذه الصـورة . كانت نبـاتـات المـانـداكـارو والاسـترادو تغطي السهب : أشـواك ، ولاشيء سوى الأشـواك من حوله . وبالينا تسيطر على تفكيره . لابد من الهرب من هذه النباتات المعادية .

كان الصغـيران يركضـان . وبحثت دونيـا فيكتـوريا عن سبحة الحسابات ذات الحبات البيضاء والزرقاء التي تضعها في صدرها ، لكن الحركة التي قامت بها كادت توقع صندوق القش المطلي . اعتدلت لتثبت الصندوق فوق رأسها وحركت شفتيهـا متمتمـة بدعـاء . فليحم ربنـا الله الابـريـاء . كانت دونيا فيكتوريا تلين ، وملأت قلبهـا رقـة كبـيرة . لكنها حاولت استعادة حماسها . ولتتخلص من الأفكار الكئيبـة ، بدأت محادثـة من مقـاطـع صوتية بسيطة مع زوجها . ورغم انها لم تكن

مصيرة اللسان الى حد ما، فقد كانت تشعر بعقدة في حنجرتها وتعجز عن التعبير. لكنها تجد نفسها مخذولة وضئيلة في هذه العزلة، وتشعر انها تحتاج الى مساندة من أحد تثبت فيها الشجاعة. كان لابد لها من سماع صوت ما، ينسيها صوت العصافير والاوراق الجافة والرياح، وهي تتقدم بصمت قاتل. كان حزام الشفق الأحمر قد اختفى، ذائباً في الزرقة التي تملأ السماء. وكانت دونيا فيكتوريا بحاجة للكلام، لانها ستصبح اذا مابقيت صامتة، كأحد جذوع الماندا كارو هذه التي تذوي وتموت. كانت تريد خداع نفسها، تريد الصراخ، تريد ان تقول انها قوية وان كل هذا القيظ الرهيب، وهذه الاشجار المتحولة الى هياكل، وهذا السكون والصمت لاتساوي شيئاً. دنت من فابيانو لتحميه وتحمي نفسها، ونسيت كل هذا الواقع المباشر، نسيت الاشواك وأسراب العصافير والعجول التي تتأمل من أعالي المسلخ. تكلمت عن الماضي، خالطة اياه بالمستقبل. ألا يمكنهم ان يعودوا كما كانوا من قبل؟

ترنح فابيانو، وهرش ذقنه وهمهم، كما يفعل عادة كلما وجهوا اليه كلمات غير مفهومة. ولكنه استحسن بدء دونيا فيكتوريا المحادثة. كان قد أخذ يشعر بالقنوط، وكان كيس المؤونة والجراب قد بدآ يثقلان عليه كثيراً. وجهت دونيا فيكتوريا السؤال، ففكر فابيانو به وسار حوالي نصف فرسخ دون أن يفهم معناه أراد في أول الأمر أن يرد بانهم مايزالون دون ريب على ماكانوا عليه، لكنه مالبث ان انتبه الى انهم يتبدلون، فهم أكبر سناً وأكثر وهناً. وبكلمة اخرى: انهم آخرون. ألحت دونيا فيكتوريا. ألن يحالفهما حسن الطالع في البدء بحياة جديدة بعيدة عن المكان الذي خرجوا منه؟ كان فابيانو يترنح، هازاً رأسه. ربما كان الأمر كذلك وربما لا. تبادلا بصوت خافت حديثاً طويلاً ومتقطعاً، مليئاً بسوء الفهم والتكرار. يمكنهم العيش ثانية كما عاشوا حتى الآن، في بيت تحميه طاحونة دون توماس. تحاورا وتوصلا الى النتيجة الى ان هذا لايستحق العناء، لانهم سيبقون دوما خائفين من الجفاف. سيقتر بون الآن من المناطق المأهولة ويجدوا لهم مسكناً فيها. لن يبقوا كالغجر المتشردين الى الأبد. كان راعي الابقار مذهولاً لفكرة الذهاب

الى أرض ربما لاتوجد فيها مواش يعمل على رعايتها. وحاولت دونيا فيكتوريا طمأنته بالقول انه يستطيع العمل في مجال آخر، فارتعش فابيانو حين التفت وبطر باتجاه المزرعة المهجورة. تذكر الحيوانات الجريحة، لكنه أقصى الفكرة في الحال. ماالذي يفعله بالالتفات الى الوراء؟ لقد نفقت الحيوانات. عقد حاجبيه ليكبح الدموع، وضغط حنين عظيم على قلبه، ولكن مالبثت روحه ان امتلأت بعد هنيهة بصور لاتطاق: المالك، العسكري الأصفر، الكلبة باليا المبتورة بين حجارة الوهدة.

اختفى الصغير ان في أحد منعطفات الطريق. وحث فابيانو الخطى ليلحق بهما. كان لابد له من انتهاز رغبتهما في المسير وتركهما يمشيان كما يرغبان. رافقت دونيا فيكتوريا زوجها ودنت من ابنيها. وما ان انعطف فابيانو مع الطريق، حتى أحس بانه ابتعد قليلاً عن الأماكن التي عاش فيها لبضع سنوات، وتلاشى المالك والعسكري الاصفر والكلبة باليا من روحه.

بدأ الحديث ثانية. لقد أخذ فابيانو يشعر بالتفاؤل الى حد ما. ثبت كيس المؤونة وتفحص وجه امرأته السمين وساقيها المتينتين. انها في حالة حسنة. رغب في التدخين. وبما انه كان يحمل الكيس والبندقية، فانه لم يستطع اشباع هذه الرغبة. فكر بالاستراحة هناك. وتابع اللعثمة هازاً رأسه ليفزع زوبعة كانت تبدو عن قرب وكأنها تخفي المالك والعسكري الاصفر والكلبة باليا. ان أقدامه القاسية الصلبة كالحوافر، والمتعلة صندلاً جديداً، قادرة على المسير لشهور. أليست قادرة على المشي؟ كانت دونيا فيكتوريا ترى انها قادرة. وشكر فابيانو رأيها كما شكر ساقيها المتينتين، وردفيها الضخمين وثدييها الممتلئين. احمرت وجنتا دونيا فيكتوريا وكرر فابيانو الاطراء بحماس. لقد كانت كذلك فعلاً. انها منتصبة ومتينة، وقادرة على المسير طويلاً بالطبع. ضحكت دونيا فيكتوريا وخفضت نظرها. فهي ليست كما يقول تماماً، لان جسدها سيجف بعد وقت قصير، وثدياها سيتهدلان. لكنها ستسترد اللحم ثانية. ولربما كان هذا المكان الذي سيستقرون فيه أفضل من جميع الأماكن التي عرفوها. مط فابيانو شفتيه ليبدي ريبته. لماذا لايمكنهم ان يكونوا

مثل الناس القادرين على امتلاك سرير كسرير دون توماس صاحب الطاحون؟ حك فابيانو جبهته: سيبدأ الآن هراء زوجته. لكن دونيا فيكتوريا ألحت، وانتهت الى السيطرة عليه. لماذا عليهم ان يكونوا بؤساء هكذا الى الابد، يهربون في البراري كالحيوانات؟ من المؤكد ان في الدنيا أشياء رائعة. هل عليهم أن يعيشوا دوما مختبئين كالضواري؟ ورد فابيانو أن لا.

ـ العالم فسيح.

الحقيقة انه كان شديد الضيق بالنسبة لهما، يؤكدان انه فسيح ويسيران قدما وهما بين واثقين وقلقين. رأيا الصغيرين اللذين كانا ينظران الى الجبال النائية، حيث تعيش كائنات غامضة.

سألت دونيا فيكتوريا:

ـ بماذا تراهما يفكران.

بدا السؤال غريباً لفابيانو الذي همهم معترضاً. فالطفل حيوان لايفكر. لكن دونيا فيكتوريا نطقت بالسؤال ثانية، ولم يعد بمقدور الزوج حينئذ البقاء على يقينه. انها تتمتع بالعقل دون شك، وترغب في ان تعرف ماالذي سيصير اليه الابنان حين يكبران.

أبدى فابيانو رأيه في الموضوع:

ـ سيقودان المواشي.

رفضت دونيا فيكتوريا ذلك بتقطيبة استنكار، وهزت رأسها بقوة أوشكت معها أن تُوقع صندوق القش. لتنجيهما سيدتنا العذراء من نكبة كهذه. يالفكرة قيادة الماشية! سيصلون جميعهم الى أرض بعيدة لينسوا الكاتنجا بجبالها العريضة المنخفضة، وحصاها، وأنهارها الجافة، وأشواكها، ونسورها، وأناسها وحيواناتها المحتضرة. لن يرجعوا مطلقاً، وسيقاومون الحنين الذي يعتري السيرتانيين الى البراري. وهل هم جواميس ليموتوا حنيناً اذا لم يجدوا الاشواك؟ سيذهبون للعيش بعيداً جداً وسيعتادون على عادات مختلفة.

كان فابيانو يستمع مبهوراً الى أحلام زوجته، وقد أرخى عضلاته، فانزلق

كيس المؤونة عن كتفه. ثم مالبث ان اعتدل وشدّ حمولته. ان محادثة دونيا فيكتوريا تنفعه كثيراً: فقد سار فراسخ عدة دون ان يشعر. وفجأة، جاء الوهن. لابد انه الجوع. هز فابيانو رأسه وسمر عينيه من تحت حافة القبعة الجلدية السوداء والمحروقة. كان الوقت ظهراً تقريباً. خفض عينيه المبهورتين وحاول ان يكتشف في السهل ظلا أو علامة تدل على وجود الماء. كان يشعر في الحقيقة ان في معدته ثقبا. عدل عن وضع الكيس على كتفه ثانية، ولكي يبقيه متوازناً، كان لابد له من المشي منحنياً فيما أحد كتفيه مرتفع والآخر منخفض. لم يعد تفاؤل دونيا فيكتوريا يبهره كثيراً. فهي مازالت متمسكة بأوهامها. يالالمسكينة! انها تشيد قصراً في الهواء، بينما ثقل الصندوق يدفن عنقها في جسدها.

استراحوا تحت ظل شجرة كيزامبيرا، وراحوا يمضغون حفنات من جذور مطحونة، وقطع من اللحم المقدد وشربوا جرعة ماء من القرعة التي يستخدمونها كزمزمية. كان العرق يجف على جبهة فابيانو ممزوجاً بالغبار الذي يملأ التجاعيد العميقة، وكان هذا النوع من الوحل يصل حتى حافة القبعة. حين سكنت المعدة، تلاشى الدوار. وعندما سينطلقون بالمسير لن تكون القرعة ثقيلة كالسابق فوق رأس دونيا فيكتوريا. بحث بشكل غريزي في الخلاء المحيط عن علامة تشير الى وجود الماء، فانتابته قشعريرة، وكشف عن اسنانه المتسخة في ابتسامة طفولية. كيف يمكنه ان يشعر بالبرد في جو قائظ كهذا؟ وبقي ساهما للحظة، يتأمل ابنيه وزوجته والمتاع الثقيل. كان الابن الأكبر يطحن باسنانه عظمة بشهية. تذكر فابيانو الكلبة بالينا، فاعترته قشعريرة اخرى هزت عموده الفقري، واختفت تلك الابتسامة البلهاء.

اذا ماوجدوا ماء، قريباً من هنا، فسيشربون كثيراً، الى ان يمتلئوا ويتثاقلوا أبلغ فابيانو هذا لدونيا فيكتوريا مشيراً الى منخفض من الارض. ألا يكون ذاك منهلاً؟ ومطت دونيا فيكتوريا شفتها السفلى بارتياب، فرد فابيانو حينئذ مؤكداً انه كذلك. وهل سيقول انه لايعرف هذه المناطق وانه انما يتكلم لمجرد الكلام فقط؟ لو ان المرأة ردت بالايجاب، لابدى فابيانو تردده. ولكن، بما ان دونيا فيكتوريا

بدت مرتابة، فقد فاخر فابيانو حينئذ وحاول أن يبث فيها الشجاعة. اخترع منهلاً، وراح يصفه. . كان يكذب دون ان يدري ماالذي يكذبه. ولقد أنعش ذلك دونيا فيكتوريا وبعث فيها الآمال. اذ أحست انهم يسيرون في مناطق معروفة. وماهي مهنة فابيانو اذن؟ انها العمل مع الحيوانات، واستكشاف المناطق المحيطة على صهوة جواد. كان يستكشف كل شيء. في الجانب الآخر من الجبال البعيدة يوجد عالم آخر، عالم يثير الرهبة، أما في هذا الجانب الذي يسيرون فيه، فالسهب يكشف عن أشيائه الطبيعية البسيطة: نباتات وحيوانات، جحور وأحجار.

استلقى الصغير ان على الأرض وناما. طلبت دونيا فيكتوريا علبة التبغ من رفيقها وأشعلت الغليون. وأشعل فابيانو سيجارة. كل شيء كان هادئاً حتى الآن. والمنهل غير المؤكد أصبح واقعاً في نظرهما. وعادا لتبادل الرأي بصوت خافت حول مشاريعهما فيما دخان الغليون يختلط بدخان السيجارة. ألح فابيانو على اظهار معارفه الطبوغرافية وأشار الى حصان عمله. حيوان طيب، ولاشك انه سيموت. لو انهم احضروه معهم لكان حمل المتاع، ولكان أكل في المراحل الأولى أعشاباً جافة، أما بعد اجتيازهم سهوب الشوك، فسيجد طعاماً أخضر. ولكن هذا الحيوان لسوء الحظ من أملاك صاحب المزرعة، ولابد انه يحتضر الآن، دون ان يكون أحد الى جواره ليقدم له الطعام. سيموت رفيقه في العمل عند سفح الرابية، ضامراً ومليئاً بالقروح، وهو يرى الغربان والنسور كيف تدنو منه في أول الأمر بتردد مايلبث ان يتحول شيئاً فشيئاً الى اطمئنان، وتقفز متوعدة عينيه بمناقيرها. لو انها تتحلى بشيء من الصبر، لأكلت ضحاياها بأمان. ولكن هذه الجوارح التي كالوباء، والتي تطير راسمة دوائر هناك في الأعلى، لاتعرف الصبر.

ـ وباء!

انها تطير دوما، ولاأحد يعرف من أين تأتي كل هذه النسور.

ـ وباء!

نظر الى الظلال المتحركة التي تملأ السهب كله. ربما كانت تحوم راسمة

دوائر فوق الحصان المسكين المنهار في أحد أركان الرابية. وندت عنا فابيانو ياللجواد المسكين: كان ضامراً، مليئاً بالقروح، جائعاً، يفتح عينيه بهلع تبدوان معه وكأنهما عينان بشريتان.

- وباء!

مايثير حفيظة فابيانو هو عادة هذه الطيور التعيسة بنقر عيون المخلوقات التي لم تعد قادرة على الدفاع عن نفسها. نهض مرتعداً، وكأن تلك المخلوقات كانت تنقض من السماء الزرقاء وتحوم قريباً منه، في طيران يكاد ان يلامس الأرض، راسمة دوائر تضيق تدريجياً حول جسده وجسد دونيا فيكتوريا والصغيرين.

تنبهت دونيا فيكتوريا الى القلق الذي يسيطر على وجهه المعذب، فنهضت هي أيضاً، أيقظت ابنيها وحزمت الامتعة. أعاد فابيانو تثبيت حمولته على كتفيه. وحلت دونيا فيكتوريا الحزام المثبت على خاصرته، وسحبت منه الزمزمية وركزتها على رأس الابن الاكبر، فوق وقاء من الملابس العتيقة. ووافق فابيانو على هذا التعديل وابتسم، ناسياً النسور والحصان. أجل ياسيدي، انها كذلك. أية امرأة لديه! لقد خففت عنه بهذا شيئاً من حمولته وحمت رأس الصغير من الشمس. ان وزن القرعة التي يستخدمونها كزمزمية كان غير ذي شأن، لكن فابيانو وجد نفسه خفيفاً، فاتجه نحو المنهل وهو يطأ الأرض بثبات. سيصلون الى هناك قبل حلول الليل، ليتمكنوا من الشرب والراحة، ولكي يتابعوا المسير بعد ذلك على ضوء القمر. كل هذا كان مشكوكاً فيه، لكنه راح يكتسب تماسكاً. وعادت المحادثة تتجدد بينهما فيما الشمس تغيب. اذ قال فابيانو متحدياً السماء والأشواك والنسور:

- لقد أكلت شحم خنزير مليء بالوبر.

فهمهمت دونيا فيكتوريا لالتسأل شيئاً، وانما لتؤكد ماقاله:

- صحيح، ايه؟

وشيئاً فشيئاً راحت الحياة الجديدة ترتسم في مخيلتها، وان كانت ماتزال مشوشة. سيستقرون في مكان ضيق، وهذا مايبدو صعباً على فابيانو، الذي عاش حياته طليقاً في البراري اللامحدودة. وسيزرعون قطعة الأرض. وبعد ذلك،

سينتقلون الى المدينة، حيث يستطيع الصغيران التردد على المدرسة، ليصبحا مختلفين عنهما. تحمست دونيا فيكتوريا. وضحك فابيانو وأحس برغبة في فرك كفيه ببعضهما، لكنه كان يحمل الكيس والبندقية.

لم يكن يعبأ بالبندقية، ولابكيس المؤونة، ولابالحصى التي تدخل في صندله، ولابرائحة الجيفة النتنة التي تملأ الطريق. اذ ان كلمات دونيا فيكتوريا قد أطربته، سيمضون قدماً الى ان يصلوا أرضاً غير معروفة. وكان فابيانو جذلا ومؤمناً بوجود هذه الأرض، لانه لايعرف أين ولاكيف هي. كان يردد كلمات دونيا فيكتوريا بانقياد، الكلمات التي تهمس بها دونيا فيكتوريا لانها تؤمن بها. ويواصلون السير نحوا-لجنوب، غارقين في هذا الحلم. مدينة كبيرة مليئة بأناس أقوياء، والصغيرين في المدرسة، يتعلمان أشياء صعبة وضرورية. وهما، فيكتوريا وفابيانو، سيهرمان، لينتهيا كما الكلاب، دون نفع. سينتهيان مثل الكلبة بالينا. ماالذي سيفعلانه؟ تباطأ وجلين. سيصلون الى أرض غير معروفة ومتحضرة، ويتحولون هناك الى أسرى. وستواصل سهوب السيرتاو بدفع الناس الى هناك، سيبعث السيرتاو الى المدينة ببشر أقوياء وجهلة، مثل فابيانو ودونيا فيكتوريا والصبيين.

حيوات جافة

GRACILIANO RAMOS

VIDAS SECAS

السعر ٦٠ ل.س

الأهالي